الباب الأول
رحلة عبر التاريخ والحكم والأسرار

الفصل الأول : رحلة عبر التاريخ.
الفصل الثاني : رحلة في أعماق الحِكَم والأسرار.
الفصل الثالث : رحلة التكليف وقضايا الاستطاعة.

الفصل الأول
رحلة عبر التاريخ

المبحث الأول : الرحلة إلى المكان المقدس قديماً.
المبحث الثاني : سفرة هاجر عليها السلام والتوجه الصحيح.
المبحث الثالث : مكة المكرمة.
المبحث الرابع : الكعبة المشرفة.
المبحث الخامس : الكعبة والبناة.
المبحث السادس : الكعبة والطغاة.
المبحث السابع : الكعبة البناء والمكين.
المبحث الثامن : المسجد الحرام.
المبحث التاسع : زمزم.

المبحث الأول

الرحلة إلى المكان المقدس قديماً

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[1].

لنتوجَّه إلى النفس بعض الشيء ولنكشف عن الجانب الإشراقي فيها، ولنتأمل الموجودات الأخرى، فمثلاً هذه الزهرات الأبكار ـ التي تستقبل الصبح الندى بالترحاب ـ تتوجه بكل ما فيها من حياة، وبكل ما لديها من شذا إلى السماء وكأنها تدرك أنها ما خلقت إلا لتسبح على الرغم من قصر مقامها في هذه الدنيا. وكذا الطير يسافر في جماعات متوجهاً إلى رزق قدره الرازق، وما ذلك إلا تنفيذاً لأمر معلوم سطر في عالم الغيب. فهذه الطيور المهاجرة، وتلك الزهور الناضرة لم تخطىء، لأنها لم تغتر كما فعل الإنسان، وإذا تتبعنا الإنسان حين تتيقظ فطرته نجده يبكي ما فاته، ويحث الخُطا نحو الخالق الأعظم، إلا أنه قد أسلم قياد نفسه لعقل يتخبط في دروب الوهم، ومن ثَمَّ وجدناه يلتف حول نفسه ضارباً في التيه، يرى النار تضيء وتحرق فيجد لها.. ويخصص لها موضعاً لتظل تضطرم أبداً، ثم يأتيها كل حين حاجاً زائراً. ويرى الشمس في رحلتها السرمدية فيهرع إليها ساجداً، وهو يظن أنه وجد ضالته، فإذا به يرى مبهراً آخر فيهرع إليه ويترك سابقه. ولم تخل أمة من الأمم ـ بل ولم توجد ديانة من الديانات الوضعية ـ من مكان مقدس في عقيدة أفرادها، يُجلُّونه ويقدسونه، ويفدون إليه ويعظمونه، وما ذلك إلا طورٌ من أطوار تخبطها في غياهب الشرك والوثنية، حيث أفلست بصيرتهم وأبصارهم فانطلقوا يقدسون معبوداً صنعوه.. أو وراء ظاهرة كونية شاخصة أمامهم يعبدونها كالشمس والقمر والنجم وغيرها. وما تلك إلا محاولات

---

(١) سورة الأعراف الآية: ١٧٢.

لسد الجوع الروحي المستعر الذي ينبيء عن أن الإيمان أصل فطر الإنسان عليه، إلا أنه ضل الطريق. ومن الملاحظ أن كل هذه المعبودات على تعددها لم يكتب لها البقاء أمداً لا في حافظة التاريخ ولا في صدور من صنعوها، وكثيراً ما يبتلعها النسيان وتمحق آثارها السنون.. بل إنه في تعددها والتحول من عبادة أحدها إلى آخر يخالفه في الشكل، ويغايره في الطبيعة، وفيما ينسج حول كل منها من أساطير وخرافات ـ تتحدد في إطارها طريقة العبادة ومناهج التقديس ـ تسجيل دقيق للأبعاد النفسية لإنسان نستجلي منه واقعاً عقدياً متخبطاً يضرب في التيه والغفلة. ولو أننا تتبعنا الحياة العقائدية لهذه الأمم وتلك الحضارات، لوجدنا أنها قد التقت عند مفترق واحد، فلكل منها معبوداتها، وهياكلها، ومعابدها التي يحجون إليها ويقدمون لها القرابين.

وكلها.. قد أضاعتها السنون، وما بقي منها استحال إلى دمن وأطلال، وسأحاول أن أقدم في عجالة عرضاً موجزاً لهذه الأماكن والعبادات، لنرى بعين اليقين البون الشاسع بين ما أراد الله له البقاء لأنه وحي منه سبحانه، وما استنبته سنون الغفلة والتيه من ضروب الشرك والوثنية.

عند المصريين القدماء: تعددت معبوداتهم وكان لكل معبود هيكله الخاص به الذي يفد إليه الناس، وعلى سبيل المثال لا الحصر.. كانوا يحجون إلى مدينة «صا» لزيارة هيكل معبودهم «أيزيز» وكذلك يفدون إلى مدينة «ممفيس» لزيارة هيكل معبودهم «بتاح» وإلى طيبة لزيارة «أمون».

عند أهل اليونان القديمة: وكان ذلك قبل بعثة المسيح عليه السلام بنحو خمسين قرناً. فكانوا يحجون إلى أماكن لها قدسيتها عندهم.. فيفدون إلى مدينة «أفسوس» لزيارة هيكل معبودتهم «ديانا»، ثم تحولوا إلى معبد «مينرفا» في أثينا قبل بعثة المسيح عليه السلام بقرنين من الزمان، ثم معبد «جوبيتر» في «أوليمبيا».

عند أهل الديانات الوضعية: ففي الهند يفد الهنود كل فترة إلى مدينة «حيدر أباد» لزيارة هيكل «جرعزانات» ويطلق عليه «الورى» وهو منحوت في صخور مدينة حيدر أباد. كذلك يحجون إلى جزيرة «منا» القريبة من جزيرة سيلان لزيارة هيكل «بوذا»، والأماكن التي يحجون إليها من الكثرة بحيث لا يتسع المقام لتسجيلها، وكذا فإن الدعوات التي يفدون بها إلى كل مكان لا حصر لها.. وآخرها «المهاريشا».

وفي الصين: عرف منذ زمن معبود يطلق عليه «نيسان» يفدون إليه لنيل البركة واستجلاب الحظ، ويتكبّدون المشاق في الوصول إليه.. وهو من أشهر معبوداتهم..

وفي اليابان: يفد الناس من كل فج إلى ولاية «سجا» لزيارة هيكلهم الشهير فيها، ومن الغريب أنهم نقلوا عن المسلمين رداء الإحرام.. وبعض المناسك الأخرى.

بعد هذا العرض.. هل يذكر أحدنا شيئاً عن الورى، وسجا، وبتاح، وأيزيز، وميترقا..؟؟! أظنها في ذمة التاريخ الإقليمي.

أما ما بقي إلى الآن من مدن وآثار وهياكل ومعابد فلأن نور اليقين لم يصل إليهم بعد.

المبحث الثاني

سفرة هاجر والتوجّه الصحيح

قالوا عن المرأة بهتاناً: إنها صاحبة مشورة الغواية التي جعلت الأرض مستقراً لآدم وذريته..

وقالوا عنها: إنها مدخل من مداخل الشيطان إلى نفس الرجل إثر الخطيئة الأولى، ونسي القائل أن الشيطان وسوس إليهما معاً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾[1]، فالخطاب موجه لهما معاً.

ثم انتهى بهما المطاف إلى أن أخرجهما إبليس من جوار الرحمٰن في فردوسهما، وأحلهما موضع المخالفة والخروج عن أمره. فكان الهبوط ولا يكون إلا من علو سامق.

سأقبل قول من قال لأناظره بآخر.. فلئن كانت أخرجت آدم من الجنة فقد أعادته إليها.. من خلال دور مقدر لعمارة صرح إيماني، اختاره الله ليكون وجهة كل مؤمن وسبيل كل تائه، وأمان كل روع، وسميت هذه البقعة المطهرة التي تحمل شفرة الحياة (بيت الله، والكعبة) وجعل الله المرأة هي الدليل والمرفأ، جعلها الصبر والأمل، والحب والفداء، في رمزية تجمع شتات ما تفرق، وتواجه الشر باليقين، والصمود والتحدي، وهي أنثى تغار، وتحب لكنها تتوج كل هذه المنابع المتوهجة بالإيمان واليقين والالتزام برفقة وقوامة الرجل.

سارة والغيرة وبيت الزوج:

الغيرة خصلة من خصال المرأة، وأثر من آثارها ينبيء عن أصيلة الاحتواء

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: ٢٠ ـ ٢١.

والتفرد بالشريك القائم. ولكي يعجب ابن آدم.. فرب ضارة نافعة.. ها هي ذي «سارة» تلفظ «هاجر» إلى البيداء والتيه، لأن الغيرة قد تحركت في أحشائها مع الجنين الذي بدأ ينمو في جوف هاجر الجميلة، ويحرك أوتار قلب إبراهيم الخليل.

خافت على دعائم بيتها في رجلها. فشاء الله أن يجعل لهاجر بيتاً يؤمه الناس جميعاً، وتفد إليه أرواح القاصي والداني، أعمدته تمتد إلى عنان السماء.. وبركاته تمتد إلى أطراف الأرض.

وإمعاناً في نِصفَة المظلوم، واستكمالاً لمراحل التتويج جعلها الله على أعتاب بيته العتيق.. نموذجاً للصبر، وعبرة للصمود، ورمزاً للإيمان في أرقى صورة.

هاجر والرضيع:

لقد ترك الزوج المحزون ـ بفكرنا البشري ـ امرأته ووليدها الذي انتظره طويلاً في موضع قفر بمكة المكرمة ومعها قليل من الزاد. وحين هم بالرحيل بخطى متباطئة.. تطلعت إليه وإلى ما حولها ـ لا أنيس ولا مأوى ـ ونظرت إليه ترجوه المقام.. لكن أمراً فوق هذه المشاعر التي تسيطر على كيانه، أمراً فيه ابتلاء وما أكثر بلاءك يا إبراهيم. أعرب عنه بصمت طويل.. وعنها تحدث الصمت بلغات الدنيا.. ما نعرف وما لا نعرف.

أدركت أن الأمر ليس بيده فهوّنت عليه شقوتها ـ كشأن كل زوجة صالحة ـ وقالت وهي تمحو دمعة تقاطر رمال الصحراء: ما دام الله آمرك بهذا إذن لا يضيعنا.

من منطلق إيماني امتثلت لأمر الله، إنها مؤمنة بأن من يتوكل على الله فهو حسبه.

فانطلقت دعوة إبراهيم ـ وهو يغالب ينابيع الدمع الذي اغتسل به وجه الغلام ـ ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ (١).

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

انفردت هاجر برضيعها تتأمل الإشفاق والمغيب، ترى وتنظر التلة الصغيرة وهي تفترش كل حين بنور يخالف كل ما حولها من صحار وتلال، أهذه البقعة هي بيت الله الذي أسكنها إبراهيم بجواره؟ يشدها إيمان فطري.. إنها حقاً على حافة دائرة النور، كلما نظرت إليها شعرت بالثقة والأمن والسكينة.. ثم لا تلبث أن تنظر إلى وليدها فتدفعها غريزة الأمومة إلى الخوف على الوليد من الجوع والظمأ.. إنها تهرول بفكرها بين اليقين الإيماني وطبيعتها الإنسية ممثلة في الخوف من واقعها المشهود.. وها هو الماء؟ ينفد.. وها هو الوليد يصرخ ملء فضائها فتنتفض كالمذعورة تهرول يمنة ويسرة أين الماء أين الرواء؟

فارتقت الصفا أقرب التلال إليها كي ترى شيئاً يبعث الأمل فلم تر شيئاً، فسعت إلى التلة المقابلة فارتقتها لترى من بعد ما يهدّىء من روعها، لكنها لم تر شيئاً، سوى عيني صغيرها، وجسده المتهالك، ظلت تهرول سبعاً، كلما رأت الوليد تحنأ عليه ثم تعود أدراجها. وحين رأت الرضيع يكاد يسلم الروح صرخت ـ وهي تدور حول نفسها ـ يا الله... واغوثاه... ثم ألقت بقيادها إلى الله، وضمت الوليد إلى صدرها فإذا به يدفع الأرض بيمناه وينظر إليها، لقد تفجر نبع زمزم يحمل الرواء والخير والبركة برهاناً من الله على جزاء الصابرين المذعنين له سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1]. ثم شاء الله أن يهيىء هذا المكان القفر ليكون مهوى الأفئدة والأبصار.

وما أن تفجر النبع الزلال حتى حام حوله الطير إشارة من الله إلى ميلاد حياة على ثرى مكة. وتزامن مع هذا الوقت مرور قافلة من «جرهم» قد أصابتهم الدهشة حين رأوا الطير وهم يعلمون أنه لا يحوم إلا حول ماء، ويعلمون أن هذه البقعة قفر جدباء. وحين استيقنوا استبشروا فأقبلت القافلة فإذا بهاجر والغلام على الماء.

فاستأذنوها في المقام.. فأملت عليهم شرطها.. فكانت هاجر أول من عقدت ميثاق الجوار.. ولم يك شرطها إلا حفاظاً على مشروعية زمزم للجميع فليس لهم حق تملكها كي لا يضنوا بها على من سواهم.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ١٠.

فقبلوا شرطها وأرسلوا إلى ذويهم فاستقرت نفس هاجر واطمأنت على الغلام، الذي نشأ بينهم فأحسنوا علمه وأدبه.. وأخذ عنهم اللغة العربية حتى لقد ذكر أن عربيته كانت أفصح من عربية عرب بني قحطان.

عودة إبراهيم عليه السلام:

عاد إبراهيم ينظر وديعته فوجد الرضيع صار فتيّاً، والصحراء صارت نماء وحياة، وهاجر تدعو الله أن تتعلم كيف تشكره على سائر نعمه.. لقد أدركت دعوة إبراهيم، ولكنها لم تعرف المقصود من قوله تعالى فيها على لسان إبراهيم: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾[1]، وها هو الآن يعود ثانية لاستكمال الجزء الثاني، ألا وهو إقامة الصلاة عند البيت. ولكن أين البيت؟ إنه أول موئل للعبادة في الدين الخالص له ـ دين إبراهيم ـ فكانت الإشارة القرآنية: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾[2].

الأمر حق، وها هو إبراهيم عائد لبناء البيت لتقام الصلوات من حوله، وليتجه إليه الخلائق من كل فج عميق.

يقول تعالى موضحاً دور إبراهيم وولده عليهما السلام: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾[3].

إن عملهما مقتصر على رفع ما كان ثابتاً من قواعد بزيادة ارتفاعها.. إذ كان البيت واقعاً مشهوداً تشير إليه هذه التلة البيضاء التي سكنت بجوارها هاجر الصابرة.

على أن من المحدثين والمفسرين والمؤرخين من أفاض في ذكر روايات عن البيت وأول البناة فاختلط الأمر وتشابه علينا.

واستجلاء لهذه الحقائق عمدت إلى كل ما أشار إليه كتّابنا الكرام رحمهم الله، وتحريت أكثر هذه الأقلام دقة فاعتمدت عليها، ومن أراد الاستزادة فليعد إلى مناهل العلم، وذلك بعد التعرف على هذه البقاع المطهرة كي لا يشعر المسافر رهبة السفر.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٧.

المبحث الثالث

مكة المكرمة

لم تحظ بلدة ـ منذ أن تمت إرادة الله على المعمورة، وإلى أن تأذن مشيته ـ بكل هذا التكريم، وبكل هذا الذكر، وبكل هذا الفضل.

أما تشريف مكة وطهارتها.. فلأنها تضم على ثراها أول بيت وضع للناس لهداية الخلق، وقد سجل ذلك في قرآن يتلى، يقول تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾[1]، ومن هذه الآيات البيّنات الحجر الأسود، الحطيم، انفجار نبع زمزم الذي جعله الله دواء كل سقم.

وأما تكريمها.. فلأنها مهدُ رسول الله ﷺ، شهدت شعابها مولده، وعم نوره أرجاءها. ففي صبيحة يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول، أي في العشرين من أبريل ٥٧١م ولد المصطفى ﷺ لأبوين قرشيين، وكان ذلك بعد عام من حادث الفيل ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان.

وكان مولده الشريف في شعب بني عامر شرق مكة.

أما فضلها.. فلأنها المختارة لتكون موئل الرسالة، إذ بزغ في ربوعها فجر الإسلام، وأشرقت شمس الحق الذي وأد الباطل، فكانت أول بقعة تتطهَّر من أرجاس الشرك والوثنية. وصارت موئلاً للعباد الأطهار الذين عبدوا الله الواحد الأحد بعدما كانت مرتعاً لصنوف شتى من العبادات.

مكة المكرمة في اللغة:

ذكر في الصحاح مادة «مكَّكَ»، «تمكَّكَ» أي أخرج المخ من العظم، وكأنه نقى منه.

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٩٦، ٩٧.

ومنه: «مَكَّ» غريمه أي استقصى عليه ولم يياسره، وذلك حسبما ورد في الحديث الشريف: «لا تُمكِّكُوا على غرمائكم» أي لا تستقصوا، ومَكَّةَ: أهلكه.

ومنها: «مَكَّهُ» و«امْتَكَّهُ» و«تَمَكَّكَهُ» و«مَكْمَكَهُ» أي مَصَّهُ جميعه، يقال: «تَمَكَّكَ» الفصيل ما في ضرع أمه أي استقصاه بالمص. و«مكَّ» الرضيع ثدي أمه أي شربه كله[1].

فعلى المعنى الأول: تكون التسمية بـ «مكة» تعني أنها تُنَقِّي من قصدها من ذنوبه، وتمحو آثامه إن توجه إلى البيت مخلصاً تماماً كما ينقى المخ من العظم.

وعلى المعنى الثاني: يكون المقصود أن مكة تهلك من قصدها بسوء.

وعلى المعنى الثالث: تكون قد سميت بذلك لقلة مائها أخذاً من قولهم: امتك الفصيل ضرع أمه إذا امتصه.. وقيل لأنها تمك الذنوب أي تذهب بها.. من هنا يعود الزائر كما ولدته أمه.

وقد وردت في القرآن الكريم كلمة «بكة» أيضاً وهي من أسماء مكة الشهيرة. وقيل: سميت بذلك لأنها «تبك» أعناق الظلمة والجبابرة، بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها.. وقيل في معنى بكة أيضاً: إنها محل ازدحام الناس، لأن الناس يتباركون فيها.. وقيل: إن بكة اسم يطلق على المكان الذي حول الكعبة.. أي موضع الطواف، ومكة كل ما سوى ذلك أيضاً، حيث يقول أبو مالك الغفاري: إن بكة موضع البيت ومكة ما سوى ذلك.

ومما روي عن ابن عباس ﷺ في ذلك قوله: إن مكة من الفج إلى التنعيم، وبكة من البيت إلى البطحاء، وأثر مثل ذلك القول عن العديد من أهل العلم.

أسماء مكة المكرمة:

ولمكة المكرمة عدة أسماء، منها مكة، وبكة، والبيت العتيق، والبيت الحرام، والبلد الأمين، والمأمون، وأم رحم، وأم القرى، وصلاح، والقرش «على وزن البرد».

والقادس، لأنها تطهر من الذنب، والمقدسة، والناسة، والباسة، والحاطمة،

(١) الصحاح «تاج اللغة وصحاح العربية» لإسماعيل بن حامد الجوهري، ج ٤، ص: ١٦٠٩٠.

والرأس، وكوثاء، والبلدة، والبنية، والكعبة، والبلد. وقد ذكر القرآن الكريم سبعة منها:

أولها: «مكة» في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾[١].

ثانيها: «بكّة» كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾[٢].

ثالثها: أم القرى كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[٣].

رابعها: البلد، إذ يقول تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝﴾[٤].

خامسها: البلدة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾[٥].

سادسها: البلد الأمين، يقول تعالى مُقْسِماً بها: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾[٦].

سابعها: البلد الآمن، يقول تعالى على لسان إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾[٧].

مضاعفة الجزاء في مكة:

ومن فضل مكة على سائر البقاع أن الله أجزل فيها العطاء، وجعله أضعافاً مضاعفة، فالصلاة في حرمها بمائة ألف صلاة في غيرها، لما رواه جابر ﷺ أن

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٤.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩٢.
(٤) سورة البلد، الآيتان: ١، ٢.
(٥) سورة النمل، الآية: ٩١.
(٦) سورة التين، الآيات: ١ ـ ٣.
(٧) سورة البقرة، الآية: ١٢٦.

رسول الله ﷺ قال: «**صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام. وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه**»(١).

هذا وقد حسب ذلك فبلغت صلوات اليوم والليلة بمكة في ثلاثة أيام ـ أي خمس عشرة صلاة ـ مليوناً ونصف المليون صلاة في غيرها، وذلك يعادل صلوات ألف عام. وعلى ذلك فمن أقام بمكة ثلاثة أيام ـ وهي أقل ما يقيمه الحاج ـ يعبد الله فكأنه عبد الله في غيرها ألف سنة، وكأنه عُمِّر مثل عُمُرِ نوح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام في طاعة الله تعالى، وهذه إحدى المنافع التي أشار إليها النص القرآني ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾(٢).

وكيف لا يكون ذلك وهي أحب البلاد إلى الله، مصداقاً لقول الرسول ﷺ عند خروجه منها: «**والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنني أُخرجت منك ما خرجت**»(٣).

حرمة مكة:

وهي لهذا الفضل، ولهذه المكانة المتفردة، اختصها الله بالتحريم وذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾(٤)، وقول الرسول الكريم ﷺ: «**إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار**»(٥)، وقوله ﷺ: «**فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لايعضد شوكه ولا ينفر صيده**»(٦).

مضاعفة العقوبة في مكة المكرمة:

وكما أجزل سبحانه وتعالى العطاء، وجعله أضعافاً مضاعفة لمن توجه إليه

---

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه ـ كتاب الصلاة ١/ ٤٥١ وإسناده صحيح.

(٢) سورة الحج، الآية: ٢٨.

(٣) رواه الترمذي في سننه بلفظ «وأحب أرض الله إلي» وقال، حديث حسن غريب، المناقب ٥/ ٣٨٠.

(٤) سورة القصص، الآية: ٥٧.

(٥) رواه البخاري ومسلم ـ اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الحج ٢/ ٧٨.

(٦) رواه البخاري ومسلم ـ اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الحج ٢/ ٧٨.

بفطرة نقية، مستشعراً عظمة المكان، ومهابة المكين، فأصبح وأمسى ذاكراً، عاكفاً، ساجداً طائفاً، تاركاً من ورائه رغائب الدنيا ومتاعها الزائل.

كذلك ضاعف العقوبة على من ينتهك حرمة أمنه، ويروع من أَمَّنَهم الله. بل جعل لهم قانوناً خاصاً تفردوا به عمن سواهم. فالأصل قول الرسول ﷺ: «**ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها كُتبت له حسنة**». فالعبرة بكل ما يصدر عن الجوارح من إثم، ولا عبرة بما يجول في القلب ما دام لم يخرج عن الخاطر. أما في مكة فالعقوبة تجب بمجرد النية والعزم، ولا تجب على غيرهم بمجردهما في أية بقعة أخرى. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

فهنا رتب سبحانه إذاقة العذاب الأليم على إرادة الإلحاد بالظلم، وفيه ترتيب الجزاء على الشرط، والباء في قوله بإلحاد تعني أن الإرادة مضمنة معنى الهم، أي ومن يهم فيه بإلحاد. والإلحاد يعني الميل عن دين الله، والكفر والشرك به، وفعل شيء مما حرم الله.

بل إن بعض أهلِ العلم عدَّ المغالاة في التسعير، واحتكار الطعام بمكة انتهاكاً لحرمة الحرم.

ومنهم من قال: إن قول الرجل (لا والله)، (بلى والله) يدخل في ذلك.

ومما ذكر عن ابن عمر ﷺ أنه كان له فسطاطان، أحدهما في طرف الحرم والآخر في طرف الحل، فإذا أراد أن يعاتب أهله، أو غلامه فعل ذلك في الفسطاط الذي ليس في الحرم، ويرى أن مثل ذلك يدخل في الإلحاد بظلم.

غير أن المقصود ـ والله أعلم ـ (بالهم والنية) في قوله ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ هو العزم الأكيد على فعل المعصية لولا أن يصرفه عن ذلك صارف. ومما يؤيد هذا القول حديث أبي بكرة الثابت في الصحيح. «**إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار**»، قالوا: يا رسول الله، قد عرفنا القاتل فما بال المقتول؟ فبين ذلك بقوله ﷺ: «**إنه كان حريصاً على قتل صاحبه**»[2]. بمعنى

(١) سورة الحج، الآية: ٢٥.

(٢) رواه مسلم ـ كتاب القسامة ٣/١٣٠٨.

أن ذنبه الذي أدخله النار هو عزمه المصمم، وحرصه على قتل صاحبه المسلم.

لذلك وغيره، ينبغي على أهل مكة وزائريها من حجاج ومعتمرين وغيرهم أن يضعوا نصب أعينهم أنهم لو شاءوا لأجزل الله لهم العطاء الخيّر وكأنهم يؤدون الطاعات، ويبذلون القرب ألف سنة، ولو حادوا عن أمر الله بأي ظلم أو جور أو بهتان لأذيقوا صنوف العذاب في الدنيا قبل الآخرة، ولكتبت عليهم السيئات أضعافاً مضاعفة وكأنهم ما عُمّروا في الأرض أعماراً مضاعفة إلا لارتكاب المحظورات.

وليتدبر كل منا مقامه ومعاشه وكسبه وإنفاقه وأهواءه... ليدرك حقيقة أمره، وليعدل مساره، وإن لم يستطع فليخرج عنها لتوه قبل أن يترتب عليه جواب الشرط: ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

وصدق المبتهل حين قال مناجياً ربه: «إن عاملتنا بعدلك لم تبق لنا حسنة، وإن عاملتنا برحمتك لم تبق لنا سيئة».

(١) سورة الحج، الآية: ٢٥.

المبحث الرابع

الكعبة المشرفة

أسماء الكعبة:

الكعبة هي البناء المقام دليلاً على وجود البيت. وسميت بذلك لتكعيبها، ولها أسماء كثيرة غير الكعبة: منها البيت العتيق، وسمي بذلك الاسم لأن الله أعتقه من الجبابرة فلم ينله جبار قط. ومنها المسجد الحرام، وذلك لقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[1]. ومنها البنية، وقد عرف ذلك الاسم واشتهر بين العرب فكانوا يقسمون برب البنية. ومن أسمائها أيضاً نادر والقرية القديمة، وقادس، والدوار.

الكعبة في القرآن:

ذكرت الكعبة في القرآن الكريم في موضعين: الأول قوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾[2]. والثاني في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾[3].

وصف الكعبة:

تقع الكعبة في منتصف المسجد الحرام. وهي بناء مكعب الشكل تقريباً، دارها الشرقي يميل إلى الشمال بنحو ٢٠°، وارتفاعها ١٥متراً. وطول ضلعها الشمالي ٩,٩٢ من المتر، والغربي ١٢,١٥ من المتر، والجنوبي ١٠,٢٥ من المتر، والشرقي ١١,٨٨ من المتر، وفي الضلع الشرقي بابها، ويرتفع عن الأرض بنحو المترين، وهو من الذهب الخالص، وقد كُتبت عليه بكامله الآيات القرآنية،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٠.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٩٥.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٩٧.

وصنع من الذهب في عهد الملك خالد بن عبد العزيز. وكان قبل ذلك مغطى بصفائح من الفضة المطلية بالذهب، وبخاصة مصراعاه، وقفله وعتبته، منذ خلافة السلطان سليمان القانوني سنة ٩٥٩ هـ.

ويلاصق جدار الكعبة من أسفلها بناء من الرخام يسمى بالشاذروان أقيم تقوية للجدار، وهو يحيط بها من جهاتها الأربع، وارتفاعه في الجهة الشمالية ٥٠ سم بعرض ٣٩ سم، ومن الجهة الغربية ٢٧ سم بعرض ٨٠ سم، ومن الجهة الجنوبية ٢٤ سم بعرض ٨٧ سم، ومن الجهة الشرقية ٢٢ سم بعرض ٦٦سم[١]. وقيل إن الشاذروان ما نقصته قريش من عرض جدار أساس الكعبة حين ظهر على الأرض كما هي عادة الناس في الأبنية. والشاذروان عند الشافعية والمالكية من البيت، فالمطاف على ذلك لا يكون إلا بعده، وهو ليس من البيت عند الحنفية، أما الحنابلة فقد اتخذوا رأياً وسطاً، فقالوا: إن الاحتراز منه مطلوب، إلا أن ترك الاحتراز لا يفسد الطواف. ولا يعرف متى بدأ البناء على أصل الشاذروان. وقد جدد البناء عليه مرات، فبني في سنة ٥٤٢ هـ، وسنة ٦٣٦ هـ، ٦٦٠ هـ، سنة ١٠١٠ هـ.

أركان الكعبة:

في الركن الجنوبي الشرقي للكعبة من الخارج الحجر الأسود الذي يبدأ منه الطواف، ويرتفع عن الأرض متراً ونصف المتر. وهو أسود اللون ذو تجويف أشبه بطاس الشرب. وقد حدث فيه تشقق وعمل له سنة ١٢٩٠ هـ غطاء من الفضة، في وسطه فتحة مستديرة قطرها ٢٧ سنتيمتراً، ويرى منها الحجر ويُستلم.

أما ركن الكعبة الشمالي الشرقي فيسمى الركن الشامي العراقي، وركن الكعبة الشمالي الغربي يسمى الركن الغربي. أما ركن الكعبة الغربي الجنوبي فيسمى بالركن اليماني ويستلم أيضاً عند الطواف. فكل جهة من بقاع الأرض تستقبل ركنها[٢] تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[٣].

(١) مرآة الحرمين ـ للواء إبراهيم رفعت باشا، جـ ١، ص: ٢٦٨.

(٢) مرآة الحرمين ـ للواء إبراهيم رفعت باشا، جـ ١، ص: ٢٦٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥٠ كما ذكرت أيضاً في نفس السورة آية ١٤٤.

وصف الكعبة من الداخل:

في وسطها من الداخل ثلاثة أعمدة من خشب العود الماوردي الجيد، قطر الواحد منها ربع المتر، وقيل نصف المتر، ولون خشبه بين الحمرة والصفرة، وهي على صف واحد من الشمال إلى الجنوب، وقد صدع أسفل هذه الأعمدة في بداية هذا القرن ورممت بوضع دوائر من الخشب من أسفلها محل التصدع وثبتت بها. . . ويرجع تاريخ هذه الأعمدة إلى إمارة عبد الله بن الزبير، فقد وضعها منذ ثلاثة عشر قرناً تقريباً، وهي لا تزال على قوتها ومتانتها رغم كونها من الخشب.

وسقف الكعبة منقوش بالنقوش العربية الرائعة الجمال. وعلى ارتفاع ثلثي الأعمدة الخشبية دعامة من الخشب علقت عليها قناديل الكعبة المهداة إليها من الملوك في العصور المختلفة. وهي آية في الروعة والجمال بعضها من الذهب الخالص، والأخرى من الذهب والجواهر النفيسة. أما أرض الكعبة من الداخل فقد غطيت بالرخام الأبيض.

وجدار الكعبة من الداخل مؤزَّر برخام ملون ومزركش بنقوش عربية، وبالداخل أيضاً علقت أستار من الحرير الوردي كتب عليها بالنسيج الأبيض (لا إله إلا الله محمد رسول الله، الله جل جلاله) على شكل (دال) أو رقم (٨) وبنفس الشكل كتبت عبارة (سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم). ثم كتب أيضاً في دوائر على نفس الشكل (يا حنّان) (يا سلطان) (يا منّان). (ياسبحان). هذا وقد علقت على جدار الكعبة من الداخل سبعة ألواح من الرخام،كتبت عليها أسماء من عمَّروا أو جددوا شيئاً في الكعبة أو المسجد؛ وعلى الجدران لوحات بأسماء الذين قاموا بتجديدات عبر التاريخ.

هذا وعلى يمين الداخل إلى الكعبة في زاوية الركن الشمالي الشرقي باب يصعد منه على درج يقال له باب التوبة أسدلت عليه ستارة من الحرير المزركش.

ذرع الكعبة من الداخل:

طولها من وسط الجدار اليماني إلى وسط الجدار الشامي ١٠,١٥ من المتر، ومن وسط جدارها الشرقي إلى وسط جدارها الغربي ١٠,٨ من المتر.

الحجر الأسود:

ويقع في الركن الجنوبي الشرقي للكعبة المشرفة، وقد وضعه خليل الله إبراهيم عليه السلام في هذا المكان على القواعد الأساسية للبيت التي رفعها هو وولده إسماعيل عليه السلام.

وللحجر الأسود خصائص ومزايا عظيمة، وفضائل جليلة نذكر منها:

* أنه من أحجار الجنَّة الكريمة، لما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**الحجر الأسود من الجنة**»[١].
* يقع في أشرف مكان في بيت الله على القواعد الأصلية التي رفعها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. يقول تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾[٢].
* الحجر الوحيد الذي شُرِّع تقبيله واستلامه.
* يبدأ الطواف حول البيت من الركن الذي به الحجر.
* في تقبيله واستلامه كفارة للخطايا والذنوب.
* يشهد يوم القيامة لمن استلمه بحق.
* قيل إنه يمين الله في الأرض يصافح بها عباده.

الركن اليماني:

هو ركن الكعبة المشرفة الغربي الجنوبي، ويقع على القواعد الأولى للبيت التي رفعها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فقد ثبت عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال عن الركنين الآخرين اللذين لا يستلمان ـ الركن الشامي والركن الشمالي الغربي ـ: (إني لأظن أن رسول الله ﷺ لم يترك استلامهما إلا لأنهما ليسا على قواعد البيت)[٣].

والركن اليماني له فضائل عظيمة ومزايا جليلة فقد استلمه الرسول ﷺ بيده

---

(١) رواه أحمد والترمذي ـ مسند أحمد ٥/٣٤٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٧.

(٣) أخرجه أبو داود والنسائي ـ سنن أبي داود كتاب المناسك ٢/١٧٦.

الشريفة كثيراً، وتبعه الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً، فصار استلامه سنة صحيحة متفقاً عليها. فقد أخرج أبو داود عن ابن عمر ، قال: (كان رسول الله ﷺ لا يدع أن يستلم الركن اليماني والحجر في كل طوفةٍ وكان عبد الله بن عمر يفعله)[١].

أما فضائله فقد روي عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**وكّل به سبعون ملكاً** ـ يعني الركن اليماني ـ **فمن قال: اللّهم إني أسألك العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار: قالوا آمين**»[٢].

حجر إسماعيل... (الحطيم):

هو بناء على شكل نصف دائرة، جعله إبراهيم الخليل ﷺ عريشاً إلى جانب الكعبة المعظمة. وقد ورد في «أخبار الأزرقي» أنه كان زرباً لغنم إسماعيل، غير أنه لما بنت قريش الكعبة نقصت من جانبها الشمالي ستة أذرع وشبراً على أشهر الروايات وأدخلته حجر إسماعيل. ولما بناها عبد الله بن الزبير أدخل فيها ما نقصته قريش منها.

ولما أعاد الحجاج بن يوسف الثقفي بناء الكعبة اقتطع منها الستة أذرع والشبر وأدخلها في حجر إسماعيل.

هذا وقد بني مرة أخرى في عهد السلطان عبد المجيد خان العثماني سنة ١٢٦٠هـ فزاد في طول المستقيم من الحجر[٣]، ويسمى «الحجر» بالحطيم.

يقول ابن الأثير في «النهاية» إن موضعين سميا بالحطيم.

الموضع الأول: مابين الركن والباب أي الملتزم.

والثاني: هو الحجر المتحطم المخرج من الكعبة وسمي به لأن البيت رفع ونزل محطوماً. ومما رواه الحموي في معجمه عن ابن عباس : الحطيم الجدر بمعنى جدار الكعبة.

---

(١) أخرجه أبو داود والنسائي ـ سنن أبي داود كتاب المناسك ٢/ ١٧٦.

(٢) رواه ابن ماجة ـ كتاب المناسك ٢/ ٩٨٥.

(٣) تاريخ الكعبة المعظمة ـ باسلامة ١٣٧ ـ ١٤٢.

وقيل أيضاً في سبب التسمية بالحطيم: إن العرب كانت تطرح فيه ما طافت به من الثياب فتبقى حتى تحطم بطول الزمان.

ويقول الأزرقي: إن الحطيم ما بين الحجر الأسود والمقام وزمزم والحجر، وقد سمّي بذلك لأن الناس يزدحمون على الدعاء فيه، ويحطم بعضهم بعضاً، إذ أن الدعاء مستجاب فيه.

نخلص من ذلك إلى أن الحطيم يطلق على الحجر، وكذلك الملتزم، وما بين زمزم والمقام والكعبة.

دفن إسماعيل في هذا الموضع:

ذكر أكثر أهل العلم أن نبي الله إسماعيل وأمه هاجر عليهما السلام قد دفنا في الحجر. يقول ابن جرير الطبري: عاش إسماعيل ١٣٧ سنة ودفن في الحجر عند قبر أمه هاجر، وقد حكى ابن إسحاق والحافظ ابن كثير وابن عابدين والأزرقي مثل ذلك.

مقبرة الأنبياء:

هذا ولم يذكر ذلك فحسب، بل قيل: إن ما بين المقام والركن وزمزم قبر تسعة وتسعين نبياً.. إذ ذكر أبو البقاء محمد بن أحمد بن محمد بن الضياء المكي القرشي المتوفى سنة ٨٥٤ في كتابه البحر العميق عن محمد بن سابط قال: مات هود، ونوح، وصالح، وشعيب بمكة فقبورهم بين زمزم والحجر.. وكان كل نبي إذا هلكت أمته لحق بمكة فيتعبد فيها ومن معه حتى يموت.

فضل الصلاة في الحجر:

وللصلاة في الحجر فضل عظيم فهي كالصلاة داخل البيت فقد روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أحب أن أدخل البيت فأصلي فيه، فأخذ رسول الله ﷺ بيدي فأدخلني الحجر وقال: «**صلّ فيه إن أردت دخول البيت فإنما هو قطعة من البيت**»[1].

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ـ أبواب الحج ٢/ ١٨١.

الملتزم:

هو ما بين الحجر الأسود وباب الكعبة، ويقال له الملتزم لأن الناس يلتزمونه، ويدعون عنده فيستجاب لهم، لما روي عن ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**الملتزم موضع يستجاب فيه الدعاء. ما دعا أحد بشيء في هذا الملتزم إلا استجيب له**»[١].

وعن ابن عباس ﷺ أيضاً قال: «**بين الركن والمقام ملتزم ما يدعو به صاحب عاهة إلا برأ**»[٢].

كسوة الكعبة:

قبل الإسلام كانت تكسى بالحبرات والأنماط ثم كساها النبي ﷺ، وأبو بكر الصديق ﷺ الحبر اليمانية. وكساها عمر وعثمان القباطي[٣] المصرية. ويعد عثمان أول من كساها كسوتين.

وكانت الكساوى لا توزع وإنما توضع طبقاً أحياناً.

وفي عام ١٦٠هـ ـ حج المهدي العباسي فشكا له سدنة الكعبة كثرة الكساء وضعف البناء، فأمر بتجريدها، وألا يسدل عليها سوى كسوة واحدة.

وتوالى الملوك والخلفاء على كسوتها بعد ذلك، إلى أن كسيت في بدء خلافة الناصر العباسي كسوة خضراء، ثم كسوة سوداء. وقد استمر إلى الآن الكسوة بهذا اللون.

وفي عام ٧٥١ هـ. أراد الملك المجاهد أن ينزع كسوة الكعبة التي كانت باسم المصريين ويكسوها كسوة تحمل اسمه.. إلا أن هذه المحاولة أحبطت.

وفي عام ٨١٠ هـ أحدث في كسوة الجانب الشرقي جامات منقوشة بالحرير الأبيض، واستمرت أربع سنوات متوالية بنفس الشكل، وفي عام ٨١٩ هـ ملىء الجانب الشرقي من الكسوة من تحت الطراز بالجامات المصنوعة من الحرير

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٥/ ٣٤٧.

(٢) رواه أحمد في مسنده ٥/ ٣٤٧.

(٣) القباطي المصرية: واحدتها قُبط بالضم، وهو ثوب من ثياب مصر رقيق أبيض نسبة إلى بلدة قبط.

الأبيض وقد كتب بداخلها لا إله إلا الله محمد رسول الله على شكل دوائر، وهي الآن من القصب المطلي بالذهب.

وَقْفِيَّة الكسوة الشريفة:

أوقف الملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر قلاوون وقفاً لكسوة الكعبة المشرفة كل عام، وكسوة الحجرة النبوية، والمنبر النبوي كل خمس سنوات. هذا الوقف يتكون من قرى بسوس، وسندبيس، وأبي الغيط.

كذلك أضاف السلطان سليمان بن السلطان سليم خان عدة قرى أخرى هي: قرية سلكة، وقريش الحجر، ومنايل، وكوم رحان، وبجام، ومنية النصارى، وبطاليا[1].

وفي عهد محمد علي باشا ـ في أوائل القرن الثالث عشر الهجري ـ تم حل هذه الأوقاف وتعهدت الحكومة بصنع الكسوة من مالها العام. واستمر الحال كذلك حتى مَنَّ الله على مكة بالخير الوفير، وساق لها رجال أكفاء لم يدخروا جهداً في رعاية البيت العتيق وتوسعة المسجد، وخدمة الحجيج. وكان ضمن ما أوقف خدمة للبيت مصانع مجهزة بأحدث الأساليب العلمية لصناعة السجاد، وآخر لصناعة الكسوة الشريفة في طريق مكة القديم.

هذا بالإضافة إلى جلب الأيدي العاملة الماهرة، والخبرات العلمية للحصول على أفضل النتائج. فحظي البيت المعظم ـ بفضل الله ـ بكل ما يليق به من الإجلال والمهابة والتعظيم.

(١) الرحلات الحجازية ـ إبراهيم رفعت باشا، ص: ٢٩٧.

الكعبة والبُناة

تضاربت الأقوال حول بناء الكعبة وأول بناتها.

فقيل: إن أول ما خلق الله في الأرض الكعبة، ثم دحا الأرض من تحتها، فهي سرة الأرض، ونقطة البدء.

وقيل: إنها بنيت خمس مرات.. وقيل بنيت عشراً.. إلا أنه لا خلاف بين المؤرخين والمفسرين والمحدثين على أن الكعبة أول بيت بني لعبادة الله تعالى.

بناء الكعبة:

قيل: إن الملائكة بنوا البيت قبل خلق آدم بألفي عام فكانوا يحجونه فلما حجه آدم، قالت له الملائكة: بر حجك يا آدم حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام.

على أن ابن كثير وغيره من المفسرين لم يجزم برأي في هذه المسألة.

أما البناء الثاني، فقد أورد المفسرون روايات عديدة تنبىء عن أنه كان على يد آدم عليه السلام.

فما رواه الحافظ بن حجر العسقلاني في فتح الباري من طريق عطاء: أن آدم بنى البيت ليحفف به كما رأى الملائكة تحفف بالبيت الذي في السماء.

وقيل أيضاً إن عمر البيت من عمر آدم على الأرض. فقد أهبط من الجنة إثر خطيئته الأولى، والجنة موئل أهل الاصطفاء من ملائكة ومقربين ومخلصين، وحين جد آدم في طلب المغفرة اجتباه ربه وغفر له، فجعل له موضعاً من بيته في الجنة على الدنيا.. التي أهبط إليها كي يخلص من دناياها كل حين هو وذراريه، فيعتمروا بنوره ويستعيدوا فطرتهم الإيمانية.

أما البناء الثالث فكان على يد شيث بن آدم عليه السلام. فما ذكره الأزرقي وغيره من المفسرين، حيث إنه لما توفي آدم عليه السلام، ورفعت الخيمة التي منحه الله إياها

من حلية الجنة، حين وضعت له بمكة في موضع البيت، بنى بنوه من بعده مكانها بيتاً بالطين والحجارة فلم يزل معموراً يعمرونه هم ومن بعدهم حتى كان زمن نوح ﷺ فسفه الغرق وأودع الحجر جبل أبي قبيس، وقيل رفع وغير موضعه حتى يؤدّيه لإبراهيم.

الكعبة أول بناء للعبادة:

كانت هذه جملة الأقوال التي ذكرت حول بناء الكعبة الأول، على أنها لا ينبغي أن تحمل على محمل التصديق أو التكذيب أيضاً، وذلك لما يلي:

أولاً : لأنها لم تأت عن طريق الوحي بشقيه المتلو وغير المتلو.

ثانياً : لأن من رواة هذه الأقوال، وهب بن منبه وكعب الأحبار وهما من أحبار اليهود ثم دخلا الإسلام، وأخذ عنهما بعض الصحابة أخبار من سلف من الأمم، وهما يرويانها عن بني إسرائيل، وعن التوراة. وهذه الأخبار ينبغي ألا يؤخذ بها إلا بعد وجود دليل يعضدها، بخاصة وأن بني إسرائيل خلطوا في كتبهم بين الصدق والكذب ـ الذي وضعوه بمحض إرادتهم ـ فغيبت الحقائق.

ثالثاً : لاختلاف المفسرين حول الأخذ بهذه الأقوال وقد كانوا على ضربين:

الأول: من اعتمد عليها واستدل بها بعد نسبتها إلى قائليها بخاصة، وقد قال بها بعض الصحابة أمثال عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وزيد بن ثابت، وغيرهم ﷺ جميعاً.

الثاني: من وقف من هذه الروايات موقفاً حاسماً، وعدها من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب وعلى رأسهم ابن كثير. وأيد ذلك الرأي عدم قبولها عند كثير من الصحابة وتابعهم في ذلك بعض المحققين من أهل العلم، بخاصة وأنه لم يؤثر حديث صحيح يؤيد ما ورد فيها من أخبار.

على أننا أيضاً لا ينبغي أن ننكرها إنكاراً تاماً.. لذكرها حقيقة قائمة ألا وهي الكعبة المشرفة.

والدليل على أن الكعبة المشرفة يتزامن وجودها مع خلق السموات والأرض، وأنها أزلية، وأنها سرة الأرض ما يأتي:

١ ـ قول الرسول ﷺ في خطبته يوم فتح مكة: «**إن الله حرّم مكة يوم خلق**

السموات والأرض»[١]. ولم تحرم مكة إلا لوجود الكعبة المشرفة فيها. فهذا يدل على أن الكعبة وجدت منذ بدء الخلق.

٢ ـ ما أشارت إليه الدلائل القرآنية من أن البيت كان معروفاً لإبراهيم عليه السلام، وقد ذكر بناء إبراهيم الكعبة المشرفة في القرآن الكريم في أربعة مواضع، كذلك ذكرت السنة المطهرة بسند صحيح.

ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾[٢]، دليل على وجود مسبق درست معالمه أو غيبت فكان الأمر بالرفع والكشف عنها، فالأساس الأول حقيقة يبرزها الأمر القرآني بالرفع والإظهار. وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[٣].

وبوأنا أي: هيأنا له، ومكّنا له فيه.. فهذا يدل على كينونة هذا الموضع حقيقة بدليل إعداده وتهيئته.

وقد ذكرت كلمة (بوأ) بهذا المعنى في أكثر من عشرة مواضع في الذكر الحكيم.

منها: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾[٤].

ومنها: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾[٥].

ومنها: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾[٦].

ومنها: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾[٧].

ومنها: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾[٨].

ومما يؤكد هذا المعنى أيضاً.. قوله تعالى على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام:

---

(١) رواه البخاري ومسلم ـ اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ ٢/٧٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧.
(٣) سورة الحج، الآية: ٢٦.
(٤) سورة النحل، الآية: ٤١.
(٥) سورة يونس، الآية: ٨٧.
(٦) سورة الزمر، الآية: ٧٤.
(٧) سورة الحشر، الآية: ٩.
(٨) سورة يوسف، الآية: ٥٦.

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ (١).

فهذا يدل على أنه تعرف على موضع البيت الذي هيأه له الله، وترك زوجه وولده إلى جواره.

٣ ـ أما ما يدل على أنها سرة الأرض.. فما تطالعنا به الأبحاث المستحدثة من أن الكعبة المشرفة تقع في منتصف الكرة الأرضية، ولا زالت الأبحاث العلمية تتوالى بهذا الخصوص.

من هنا كان ينبغي أن نؤكد أن الكعبة المشرفة حقيقة أزلية تتزامن وخلق الدنيا. أما غاية ما يدور حوله الخلاف ـ الذي لا ينبغي أن نعول عليه بالتصديق أو التكذيب ـ فهو تحديد أول من بناها.

وكفانا يقيناً أيضاً أنها ذكرت في القرآن الكريم باعتبارها أول بيت اختص بالعبادة، وتفرد بتحية خاصة ألا وهي الطواف، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾(٢).

وكفانا يقيناً أيضاً أنه جعلها مهوى الأفئدة، وموئل الأطهار والعاكفين على عبادته وطاعته، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗى وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾(٣).

ولربما كان في هذا القدر المحدود من العلم اليقيني بالبيت ـ والذي يبدأ من مرحلة الرفع والإسكان في عهد إبراهيم عليه السلام ـ الغناء لكل مسلم. فليس لنا أن نخوض في غيبيات أراد الله أن تكون في ستر عنا لحكمة لا يعلمها إلا هو، إذ ليس لنا إلا التسليم أمام مراد الله وهذا ما يتناسب ومناسك الحج.

إبراهيم وولده إسماعيل والبناء:

ذكرت آنفاً أن قصة بناء إبراهيم الكعبة المشرفة هي أول ما قصَّه علينا القرآن الكريم، وأول ما بلغنا بطريق اليقين الذي لا يدخله الباطل.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

كذلك أوضحت آنفاً أن مهمة إبراهيم لم تكن الإنشاء والتعمير، وإنما اقتصرت على الرفع والإظهار بعد التهيئة الأولى التي عبر عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿بَوَّأْنَا﴾ فهذا يعني أن البيت وجد أولاً، ثم درست معالمه، ثم كان الأمر بإظهار وبناء ما يشير إليه.

روى البخاري في هذا الخصوص ما يأتي: قال إبراهيم عليه السلام، الله أمرني بأمر، قال إسماعيل: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال إسماعيل: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة عما حولها، فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فأقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

إبراهيم عليه السلام والزيادة في التكليف:

لم يكلف الله إبراهيم إلا بالرفع فقط ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾.. على أن يكون ذلك قدر جهده وعون ولده، إلا أنه زاد في التكليف بوقوفه على حجر ليزيد في البناء. وهذه سمة المؤمن الحق الذي توجه بفطرته إلى خالقه، لا يكتفي بالتكليف، وإنما يزيد عليه دائماً في إطار الشرع الإلهي، فالتكليف هو الحد الأدنى للكمال والالتزام.

أما الكمال فلا نهاية له.. لذا نرى أن فريضة الحج ـ على كل ما يتكبده الحاج من المشاق، ومن النفقات وغيرها، وعلى الرغم من كونها فرضت في العمر مرة واحدة ـ إلا أن كل من رأى البيت واستلمه بقلبه وبصيرته ـ قبل بصره ـ لا يكتفي بالمرة الواحدة ولا الثانية والثالثة. فقد انعكس ما زاده إبراهيم على التكليف في سلوكيات المؤمن.. فجعل الاستزادة أمله ومنيته. لهذا لم يكن وجود أثر لأقدام إبراهيم على الحجر حتى يومنا هذا من باب المصادفة، وإنما لمغزى إيماني كبير.

العمالقة وجرهم والبناء[1]:

أما بعد إبراهيم عليه السلام، وبعد أن آل البيت لولده إسماعيل.. حدث بمكة سيل

(١) العماليق هم أقوام من بابل سكنوا مكة المكرمة، وجرهم هم القبائل العربية النازحة من اليمن بعد هدم السد العظيم.

عظيم تهدَّمت على أثره الكعبة، وكان أناس من جرهم قد تغلبوا على ولد إسماعيل وقاموا على سدنة البيت. فلما أصابه ما أصابه أعادوا بناءه، ثم تلاهم العمالقة. وقيل إن أول من ابتناه بعد الخليل إبراهيم هم العماليق، الذين كانوا يقطنون مكة أيضاً ثم تَلَتْهم جرهم.

ويرجع الخلاف حول من تقدم منهما لعمارة البيت بعد الخليل إلى أن كلا القبيلتين كانتا تقطنان مكة في آن واحد.

وما يعنينا في الأمر هنا أن الكعبة أصابها السيل مرة بعد مرة، وهدمت على أثر ذلك فأعادت القبائل العربية بناءها مرتين.

قصي بن كلاب والبناء:

مما ذكره المؤرخون أيضاً أن من بناة الكعبة قصي بن كلاب، فما أن تولى أمر البيت حتى قام بهدمه بعدما جمع له الأموال، ثم بناه كما لم يبنه أحد قبله. فبناها على خمسة وعشرين ذراعاً، وجعل لها سقفاً من جريد النخل وخشب الدوم.

قريش والبناء:

أفاض المؤرخون والمفسرون والمحدثون في ذكر وتسجيل وقائع بناء قريش الكعبة المشرفة، ويرجع ذلك لقرب البناء الأخير من البعثة المحمدية، ولمشاركته ﷺ في البناء.

هذا وقد اختلف المؤرخون في سبب الهدم والبناء، إلا أنهم اتفقوا على أن قريشاً جددت الكعبة وابتنتها بالحجارة بعدما كانت من الرضم. أما أسباب الهدم فقيل: إن امرأة أجمرت[1] الكعبة فطارت شرارة من مجمرها في ثياب الكعبة فاحترقت، فتشاورت قريش في هدمها، إلا أنهم هابوا ذلك، فقال الوليد: إن الله لا يهلك من يريد الإصلاح، ثم بدأ الهدم بمفرده، ولما رأوه سالماً تابعوه.

وقيل: إن السيل كاد يتلف الكعبة ويسقط من بنائها وكان رضما فوق القامة، فأ ادت قريش رفعها وتسقيفها؛ وذلك لأن نفر سرقوا الكعبة. وبينما هم

(١) أجمرت أي قامت بتبخيرها.

يختلفون فيمن يضع الحجر الأسود أشار عليهم نفر بتحكيم أول داخل للكعبة، فكان النبي ﷺ، فحكموه في ذلك، وكان ابن خمس وثلاثين، فقضى رسول الله في ذلك، ووضعه بيده الشريفة.

وكانوا يفتحون الكعبة يوم الاثنين والخميس، وكان الحجاب يجلسون عند الباب. ويرتقي السلم من أراد الدخول، أما من لا يريدون دخوله فكانوا يمنعونه وكانوا يعظمونها أيما تعظيم فلا يدخلونها بنعال.

فكانت الكعبة بهذا البناء تخالف شكلاً ومضموناً ما كانت عليه إبان الخليل إبراهيم عليه السلام، بل قيل إن بين البناءين ألفين وستمائة وخمس وأربعين سنة.

عبد الله بن الزبير والبناء:

هذا البناء تواترت الأخبار على نقله وتفصيله. بل ذكرت روايته بما يقرب الإجماع، وكان ذلك عام ٦٤هـ أي ما يوافق ٦٨٣ ميلادية. فالإجماع، على أن سبب البناء ما كان من هدم الكعبة بالمنجنيق إثر تغلب الحصين بن نمير[١] على مكة كلها إلا المسجد الحرام.

فلاذ ابن الزبير وأصحابه بالمسجد، وبنوا حول الكعبة خصاصاً، أي بيوتاً من القصب، ورفافاً من الخشب يتوارون فيها من حجارة المنجنيق، ويستظلون بها من الشمس. وكان ابن نمير قد نصب المنجنيق على أخشبي مكة: أبي قبيس والأحمر ـ وهو قعيقعان ـ فكانت الحجارة تصيب الكعبة حتى تخرقت كسوتها، وهوت بعض أحجارها[٢]. واستمر الحال على ذلك أياماً، وبينما كان أحد أصحاب ابن الزبير يوقد النار في خيمة فيما يلي الصفا بين الحجر الأسود والركن اليماني ـ والمسجد يومئذ ضيق ـ وإذا بشرارة تطير من الخيمة فتصيب الخيام ثم أصابت الكعبة فتصدع البناء.

وقيل إن ابن النمير رماها هو ونفر من أصحابه بالنفط فاحترقت الكعبة، وتصدَّع الحجر الأسود[٣]، فتناثرت حجارتها مما أفزع أهل مكة، وأهل الشام جميعاً. وتركها ابن الزبير على حالها ليحرض أهل مكة على أهل الشام.

---

(١) الحصين بن نمير هو الأمير الذي أوفده يزيد بن معاوية ليقاتل ابن الزبير.

(٢) وقيل: إن أول حجر من المنجنيق وقع في الكعبة سمع لها أنين.

(٣) ذكر أن الحجر تصدع إلى ثلاث فرق فانشظت منه شظية كانت عند بعض آل شيبة ظلت أمداً، وقيل شد عبد الله بن الزبير الحجر بالفضة إلا تلك الشظية.

وبينما كان الحصار قائماً، وصل إلى مكة خبر وفاة يزيد بن معاوية فذهب نفر من أهل مكة إلى ابن النمير كي يعدل عن موقفه هذا، وبخاصة بعدما تغير الحال بوفاة يزيد. فتم ذلك وفك الحصار عن ابن الزبير. فدخل أهل مكة وبينهم عبد الله بن عمرو بن العاص، وكانت الكعبة المحترقة تتناثر حجارتها وبكوا بكاءً شديداً.

شرع ابن الزبير في البناء بعد أن استشار الناس، وتأسس في البناء بما روي عن عائشة ﵂ من قول الرسول ﷺ لها: «**لولا أن الناس حديث عهدهم بكفر وليس عندي من النفقة ما يقوى على بنائه لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع ولجعلت لها باباً يدخل الناس منه وباباً يخرجون منه**»[1].

وقال ابن الزبير معلقاً على الحديث[2]: أما أنا اليوم فأجد ما أنفق ولست أخاف الناس، فزاد منه ابن الزبير خمس أذرع حتى أبدى أساساً نظر الناس إليه، فبنى عليه البناء. وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعاً فلما زاد فيه استقصره فزاد في طوله عشرة أذرع، وجعل له بابين أحدهما يدخل منه والآخر يخرج منه، وجعل على الكعبة وأساطينها صفائح الذهب، وجعل المفاتيح ذهباً أيضاً. وفرغ من عمارة البيت في السابع عشر من رجب سنة ٦٤هـ ثم قال قولته الشهيرة: من كانت لي عليه طاعة فليعتمر من التنعيم شكراً لله ﷻ، ومن قدر أن ينحر بدنة فليفعل، ومن لم يقدر على بدنة فليذبح شاة، ومن لم يقدر فليتصدق، ولم يبق من أشراف مكة وذوي الاستطاعة فيها إلا من أهدى، ولم ير يوم كان أكثر عتيقاً ولا أكثر نحراً ولا صدقة من ذلك اليوم، وأقام أهل مكة يَطْعَمون ويُطْعِمون ويتنعمون وينعمون شكراً لله على ما أنعم من المعونة والتيسير في بناء بيته الحرام على الصفة التي كان عليها مدة الخليل إبراهيم ﷺ.

---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب الحج ٢/ ٩٧١.

(٢) لما هدم ابن الزبير الكعبة وسواها بالأرض كشف عن أساس إبراهيم فوجده داخلاً في الحجر نحواً من ستة أذرع كأنها أعناق الإبل، آخذاً بعضها ببعض، فإذا تحرك الحجر من القواعد تحركت الأركان كلها. فدعا ابن الزبير خمسين رجلاً من وجوه الناس وأشرافهم، وأشهدهم على ذلك الأساس. فأدخل رجل من القوم عتلة كانت بيده في ركن من أركان البيت، فتزعزعت الأركان كلها جميعاً، فقال لهم ابن الزبير اشهدوا، ثم وضع البناء على ذلك الأساس. ولم ينقطع الطواف فقد أشار ابن عباس بأن يطوف الناس من وراء ستار، ويتم الهدم والبناء من الداخل.

الحجاج بن يوسف الثقفي والبناء:

وفي عام أربع وسبعين كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان، يستأذنه في هدم ما زاده عبد الله بن الزبير في الكعبة على ما كانت عليه في عهد رسول الله ﷺ فتم له ذلك وأعادها إلى الهيئة التي كانت عليها في عهد الرسول ﷺ حسبما بنتها قريش. ولم يكن مر على بناء عبد الله بن الزبير عشر سنوات.

وظل البناء على حالته حتى عام ١٠٣٩هـ أي تسعمائة وأربع وستين سنة لم يصبها وهن ولا خراب حتى دخل المسجد الحرام سيل عظيم في العام نفسه مما تسبب في سقوط بناء البيت المعظم.

السلطان مراد خان والبناء ١٠٤٠هـ:

أوفد السلطان مراد خان المهندسين المصريين لعمارة البيت، ففي يوم الثلاثاء ٢١ من ربيع الثاني رست السفينة المحملة بعتاد البناء إلى جدة، وبدأ العمل، وكان أمير مكة قد أمر ببناء ستر خشب حتى لا ينقطع الطواف، وذلك بعد ما شمر بنفسه عن ساعديه وشارك في أعمال نظافة وتطهير المسجد الحرام، وتابعه وجهاء مكة وأشرافها.

هذا وقد اقتطعت الأحجار المستخدمة في البناء من جبل الكعبة ويبلغ طول الحجر نحو ذراع ونصف الذراع، وسمكه نحو ذراع. وأعيد البناء بصورة علمية مدروسة... ورسم الحجر الأسود... واستغرقت عمارة الكعبة المشرفة نحو ستة أشهر ونصف الشهر.

المبحث السادس

الكعبة والطغاة

وعلى قدر عظمة هذا البيت لذاته إلا أن هناك من يحيا منقلباً على فطرته فيرى المكان بظاهره ومادته، يراه في البناء من حجر وغيره، فتتحرك سواكن الشر في نفسه، وتدفعه نعرة الخيلاء والعجب لأن يتجرأ على البيت ليحول وجهة الخلائق، يتصور بفكر قاصر، وخيال منحرف أنه قادر على أن يبتني كعبة أخرى في مكان آخر يحج إليها الناس. وكأن الأمر متعلق بالهيكل والبناء، وليس الأمر والموضع الذي عيَّنه الله.

والتاريخ حافل بهؤلاء الذين طمست بصائرهم وطمس الران قلوبهم... فقد أراد غير واحد من الطغاة والجبابرة أن يحول العرب عن البيت إلى مكان آخر اختاره لنفسه ليحقق مجداً وشرفاً، إلا أن الله رد كيدهم إلى نحورهم جميعاً.

الطاغية الأول:

هو تبَّع بن حسان ملك حمير[1] اليهودي الذي أراد هدم الكعبة إثر قتال الأوس والخزرج، فأعد القوة لذلك، إلا أن بعض أحبار اليهود نصحوه بترك هذه الفكرة الطائشة حتى لا يلحقه أذى وبيلاً، فعاد إلى بلاده بعد أن كساها بالحرير.

الطاغية الثاني:

هو أحد زعماء غطفان، وقد ابتنى حرماً في بلاده، وأراد تحويل العرب إليه، فمنعهم من ذلك زهير بن حبان، وكان ملكاً على بلاد العرب في هذه الآونة، وحارب غطفان وانتصر عليهم وهدم حرمهم المزعوم...

---

(١) قامت دولة حمير باليمن بعد سقوط دولة سبأ، وهم فرع من السبئيين، وقد اتخذوا من ريدان (ظفار) عاصمة لهم، ثم نقلوها إلى صنعاء.

الطاغية الثالث:

هو أبرهة الأشرم[1] الذي انفرد بحكم بلاد اليمن، إذ ابتنى كنيسة بصنعاء سماها (القلّيس)، ليكسب تأييد النجاشي له، وليثني الناس عن الذهاب إلى مكة من أجل الحج إلى بيت الله، وكذلك لكي ينشر المسيحية.

ولقد بالغ أبرهة في تزيينها فنقشها بالذهب والفضة والفسيفساء وألوان الأصباغ، وصنوف الجواهر، وجعل فيها خشباً له رؤوس كرؤوس الناس، وجعل خارج القبة برنساً من القماش. فلما كان يوم عيد لهم كشف الغطاء عنها، فبدت القبة وهي تتلألأ تخطف الأبصار.

على أن ذلك لم يثن العرب عن الحج إلى الكعبة المشرفة، بل إن أحد العرب دخل تلك الكنيسة، ومكث فيها ليلاً متظاهراً بالتنسك والعبادة، ولطخ جدرانها بالقاذورات ـ وكان اسمه أبا كنانة ـ ولذلك قرر أبرهة أن يغزو مكة ويهدم الكعبة، وكان ذلك عام ٥٧١ م، وهي السنة التي ولد فيها سيدنا محمد ﷺ.

ثارت حفيظة أبرهة فسار بجيش عرمرم يربو على الستين ألف جندي ليهدم الكعبة، واختار لنفسه فيلاً من أكبر الفيلة يسمى «محمود». وكان في الجيش تسعة فيلة، وقيل ثلاثة عشر. ولما بلغ المغمس، عبأ جيشه، وهيأ فيله، وتهيأ لدخول مكة. فلما كان في وادي محسر بين المزدلفة ومنى، برك الفيل ولم يتقدم إلى الكعبة، وكانوا كلما وجّهوه إلى أية جهة أخرى هرول إليها، وإذا صرفوه إلى الكعبة برك وأبى الحراك.

أرسل أبرهة نفراً من جيشه إلى مكة يسلبوا أهلها أموالهم بالقوة. . وكان من بين السلب مائتا بعير لعبد المطلب ـ جد النبي ﷺ ـ سيد مكة وزعيمها. فما كان منه إلا أن قصد أبرهة مطالباً بإبله، فقال له أبرهة متعجباً: أتكلمني في إبلك وتترك دينك ودين آبائك وأنت تعلم أنني جئت لهدمه. فقال عبد المطلب: أنا رب الإبل وللبيت رب يحميه.

---

(١) سمي بالأشرم لأن شفته شرمت بسيف أرياط قائده الذي تمكن أبرهة من القضاء عليه وانتزاع السلطة منه.

وبينما يختال أبرهة بجحافله الجرارة، وإذا بأحجار من جهنم تحملها طوائف الطير الوحشية لتلقي بها على أجناده، فكانت تخترق الفارس من قمة رأسه ثم تخترق فرسه، ثم تذهب في الأرض إلى حيث شاء لها ربها ورب كل شيء بعد أن أدت دورها، وتركت القوم جثثاً هالكة قد أشبعها الفناء. وكأنه أصابها مرات ومرات «كالعصف»، أي كأوراق الشجر التي ولّى ربيعها فجفت بعامل الزمن، ثم جاءتها الريح العاصفة فضاعفت فناءها بالقصف والتحطيم والإلقاء بها من أعالي الأشجار إلى مستوى ما تحت الأقدام. ثم تأتي الدواب لتطأها، ثم تأكلها وتمزقها وتطحنها مضغاً، وتمتصها وتفنيها هضماً، ثم تلقي بها تفلاً وروثاً، وذلك هو العصف المأكول.

هكذا فعل الله تبارك وتعالى بأبرهة وجنوده حين أخذهم أخذ عزيز مقتدر. إن أخذه أليم شديد، غير أن الغزاة المعتدين لم يأخذوا في سحقهم ومحقهم ما أخذته أوراق الأشجار من زمن، وإنما كان الإفناء هنا رغم اكتماله وتمامه في عجل عاجل حتى عبرت عنه الآية الكريمة في سورة الفيل بالفاء التي تفيد التعقيب والإنجاز السريع في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾، وانتهى الأمر ولم يبق منه إلا ذكراه شاهداً وعبرة لأهل الأبصار[1].

وسُجِّل ذلك في قرآن يتلى إلى أن تقوم الساعة. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾[2].

الطاغية الرابع:

ولم يقتصر الأمر على هؤلاء، بل وُجد أيضاً من انقلب على فطرته بعد نعمة الإسلام، ورأى بعين لا ترى إلا المشاهد. فعبد البناء من دون رب البناء. من هؤلاء الذين طوعوا فكرهم المارق إلى واقع أبو طاهر القرمطي الذي ابتنى داراً بالأحساء سماها «دار الهجرة» وقيل «ضرار»، أراد هو الآخر أن ينقل الحجيج إليها، إلا أن جهوده باءت بالفشل، فعقد العزم على تحويلهم إليها قهراً، ففي عام

(١) سيرة ابن هشام ج ٢، ص: ٣٢، ٥٦ وقيل: إن أبرهة أصيب بداء تساقطت على إثره أنامله، الا وهو مثل الفرخ وانصدع صدره ـ ثم أهلكه الله.

(٢) سورة الفيل، الآيات: ١ ـ ٥.

٣١٧هـ دخل مكة المكرمة في البيت الحرام في تسعمائة رجل من أصحابه، وأشبع الطائفين والساجدين ذبحاً وتقتيلاً، فقتل حينئذٍ ما يربو على ثلاثين ألف نسمة، وأخذ الجواهر والنفائس من خزينة البيت ثم اقتلع الحجر الأسود وأخذه معه إلى بلاده، وكان لهذه الحادثة وقعها الأليم على الحجيج، إذ انقطع الحج فترة خوفاً من بطش الطاغية الذي أخذه الله أخذ عزيز مقتدر. وبعد حوالى اثنتين وعشرين سنة رد قومه الحجر إلى موضعه.

الطاغية الخامس:

وفي عام ٣٦٣هـ تعرض الحجر الأسود لهجمة شيطانية، فبينما خلا الطواف وقت القيلولة إلا من رجل أو رجلين، فإذا رجل عليه طمران مشتمل على رأسه يسير رويداً حتى دنا من الركن، وفجأة ضرب الحجر ضربة شديدة ثم هم بضربه ثانية، فابتدره رجل من أهل اليمن حين رآه وهو يطوف، فطعنه طعنة عظيمة أردته قتيلاً، فلما أقبل الناس من نواحي المسجد ينظروه فإذا هو رجل رومي جاء من أرض الروم. ثم أُخرِجَ من المسجد وجمع الحطب الكثير وأحرق بالنار[1].

الطاغية السادس:

وحدث مثل ذلك أيضاً في عام ٤١٤هـ، فبينما الناس يقضون مناسكهم في «منى» ضرب أحد من استغواهم الحاكم العبيدي الحجر بسيف مسلول ثلاث ضربات فتساقطت منه الشظايا، وكان أحمر اللون أشقر الشعر تام القامة جسيماً طويلاً. وكان يرغي ويزبد بأقوال أخافت الحضور لولا أن وجأه رجل من أهل مكة بخنجر ثم تكاثر عليه الناس وقتلوه، وقتل جماعة ممن شاركوه، وظل الحجر على ذلك يومين كاملين إلى أن جمع بعض بني شيبة ما وجدوه مما سقط منه وعجنوه بالمسك وحشيت الشقوق وطليت.

الطاغية السابع:

وفي عام ٩٩٠هـ جاء رجل أعجمي بدبوس في يده فضرب الحجر الأسود. وكان ضمن الحضور بالمسجد الحرام الأمير ناصر جاويش فوجأ ذلك الأعجمي

(١) تاريخ الكعبة المعظمة ـ حسين باسلامة، ص: ١٦١.

بالخنجر فقتله. ولما أراد العجم المجاورون بمكة أن يثأروا زاعمين أن قتيلهم شريف حال بينهم القاضي حسين المالكي ومنعهم.

الطاغية الثامن:

وفي عام ١٣٥٧هـ.. في آخر شهر محرم جاء رجل من بلاد الأفغان واقتلع قطعة من الحجر الأسود، وسرق قطعة من ستار الكعبة وقطعة فضة من درج الكعبة الذي هو بئر زمزم وباب بني شيبة، إلا أن سدنة الكعبة تنبهوا لذلك فقبض عليه وقتلوه وعولج ما اقتطع منه على يد أخصائيين وقد أشرف الملك عبد العزيز آل سعود على ذلك بنفسه في احتفال لائق.

فحفظ الله بيته من هؤلاء الجبابرة الطغاة. وأعاد في كل مرة للبيت أمنه وأمانه، فاطمأن من جاوره، واستلم الطائفون طوافهم، والراكعون والساجدون ركوعهم وسجودهم.

المبحث السابع

الكعبة البناء والمكين

على أن هناك من لم يفرّق بين البناء والمكين أو الموضع، وهناك من نظر بعين المهابة لهذه الأسوار الحجرية دون البحث فيما وراءها من غيبيات يكمن فيها وحدها السر الإيماني.

فليس البناء إلا رمزاً للإشعار بالمكين والموضع الذي اختاره الله ليتوجه إليه الناس. كما أنه ليس إلا أثراً من أوصاف المؤمن حين يزيد على التكليف بغية نوال رضا المكلِّف.

أما المكين فهو الموضع المختار من قبله تعالى ليوجِّه إليه المسلم قياده إلى الله روحاً وفكراً وإرادة في كل بقعة من بقاع الأرض، وكذلك ليفد إليه من ابتغى استكمال أركان إسلامه، تحقيقاً للخلوص. وقد كان البناء للإشارة إليه فإن البناء بأحجاره ليس مستهدفاً لذاته وإلا لاكتفى كل فرد بالحصول على قطعة منه ليصلي عليها ويولي وجهه شطرها، ولما جازت الصلاة فوق القمم الشاهقة التي تعلو بناء الكعبة، ولبُطلت الصلاة في أعماق المناجم والسراديب تحت سطح الأرض، ولما صحت القبلة أصلاً.. طالما تعترض طرقها جبال وعمارات شاهقة، بل ولما جازت الصلاة إلا بجوارها فقط.

والصحيح أن الهدف هو الموضع الذي دل عليه البناء والذي سبق العلم به، بدليل أن الأنبياء عليهم السلام ظلوا يطوفون بمطاف الكعبة بعد أن أغرقها الطوفان إلى أن جاء إبراهيم عليه السلام، فأقام قواعدها، وأعاد جبريل الحجر إلى مكانه، وقيل أنه استودعه جبل أبي قبيس إبان الطوفان، ولهذا فالمستهدف من زيارة البيت صاحبه وليست الأحجار.. قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾.

وما دام صاحب المكان الذي يحتوي كياننا الروحي بكامله كلما توجهنا إليه

وجدناه ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[١]، فمن باب أولى أن يكون هذا البيت مِهاداً لنوره الذي نلتقي أثره كلما توجهنا إليه.

أليس التوجّه إلى القبلة أصلاً في كل أمر مرفوع إلى الله. فلا صلاة بغير توجه إلى الكعبة، وإن توجه بغير علم إلى سواها في الظاهر إلا أنه ما دام قصدها فقد صحت صلاته لأنه استحضر الموضع الذي جعله الله لندائه ومناجاته.

التوجُّه إلى البناء دون صاحبه:

ذكرت آنفاً أن التوجه إلى المعظَّم سبحانه أصل فطر الناس عليه إلا أنهم ضلوا الطريق إليه فكانوا يصنعون الوجهة ويمهدون الطريق إليها ثم يعظمونها، وذلك قبل أن تصل البشرية إلى الهداية عن طريق الرسل والأنبياء.. وحين كان الناس يخوضون غمار الجاهلية وأوحالها، ومنهم من أدرك بفطرته التوجه إلى الكعبة، إلا أنهم جعلوا لوجهتهم بعداً عشوائياً فاقتصروا على البناء وعظموا الموضع إجلالاً للبناء. لهذا كان مألوفاً عند عرب الجاهلية أن يحتضنوا أوثانهم وينطلقوا إلى الكعبة لينتقوا لهذه الأوثان موضعاً حولها، ثم يعكفون على عبادتها.

وتعظيماً وإجلالاً للبناء ظلت الكعبة أمداً ـ ومنذ ابتناها إبراهيم الخليل وولده إسماعيل عليهما السلام، وإلى أن آل أمر مكة إلى قصي بن كلاب الجد الخامس للنبي ﷺ ـ لا يشاد من حولها جدار. فكانت القبائل التي قطنت مكة من عمالقة وجرهم وخزاعة وقريش يسكنون شعاب مكة، ويتركون البناء حول الكعبة احتراماً لها وتعظيماً لشأنها، حتى آل الأمر إلى قصي بعد أن استولى على مكة من خزاعة إثر حروب طاحنة. فجمع قومه وأمرهم أن يبتنوا حول الكعبة المعظمة بيوتاً من جهاتها الأربع. فبدأ هو وابتنى دار الندوة في الجانب الشمالي، ثم قسم باقي الجهات على بطون قريش فابتنوا دورهم حولها[٢]، وشرعت أبوابها نحو البيت وتركوا للطائفين مقدار المطاف، وما ذلك إلا تعظيماً للبيت ومحاولة للدخول في حوزة المهابة والأمان في رحابه، فيخشاهم الأعداء ولا يستحلوا منازلهم يوماً

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٥.

(٢) جعلوا بناء دورهم على شكل دائري حتى يخالفوا شكل الكعبة المربع.. كذلك جعلوها أقل ارتفاعاً من الكعبة لهذا كانت الكعبة ترى من عموم أنحاء مكة ـ تاريخ عمارة المسجد الحرام ـ حسن باسلامة، ص: ٧.

ما لجلال هذا البيت، ومبالغة في تعظيم البيت أنشأوا حزباً يقال له: حلف الفضول، انضم إليه بنو هاشم، وبنو أسد، وبنو زهرة، وبنو تيم، وقد تعاهدوا ألا يتركوا بمكة مظلوماً سواء كان من أهلها أو من غير أهلها. حتى يردوا له مظلمته. وقد شهد رسول الله ﷺ هذا الحلف، وقال: «**لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حُمُر النعم ولو دعي به في الإسلام لأجبت**».

نخلص من ذلك إلى أن عرب الجاهلية قد استدلوا بفطرتهم على مكانة البيت متأثرين بالحنيفية السمحة التي تركت لهم معلماً واضحاً من خلال علمهم بمناسك الحج كاملة، بل ومداومتهم على هذه العبادة. غير أن هناك بوناً شاسعاً في الروح والجوهر والمقصود بين ما كان يؤدى في الجاهلية وبعد الإسلام. فقد تخبطوا في غياهب الشرك، فانقطع الاتصال بينهم وبين الحقيقة التي استدل عليها الخليل إبراهيم عليه السلام، وما بقي لهم سوى تكليفات تراثية خالية من الروح الطامسة لحقيقة التوجه، وما ذلك إلا لأن المادية الشاخصة في أوثان مشاهدة غلبت على مسارهم الفكري.

ولم يكن العرب وحدهم هم الذين يجلّون البيت ويعظمونه وإنما كانت الكعبة البناء ـ مهوى الأفئدة للصابئة والفرس ولأهل الديانات الأخرى، وكانت أيضاً مطمعاً للغزاة. فالصابئة كانوا ينظرون للكعبة بعين المهابة والإجلال، بل إنهم اعتبروها من البيوت السبعة المعظمة عندهم.

أما الفرس فكانوا يقدسون الكعبة، بل بلغ بهم اعتقادهم إلى أن ادعوا أن روح هرمز قد حلت فيها.

وكذلك كان اليهود يقدسون الكعبة، وذكر أنهم كانوا يتعبدون عندها على دين إبراهيم.

وكان النصارى يعظّمون البيت ويضعون فيه ما يرمزون به لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق وعيسى عليهم السلام[1].

---

(١) حكمة التشريع وفلسفته للجرجاوي، ج ١، ص: ٢٥٦.

المبحث الثامن

المسجد الحرام

يقع المسجد الحرام في وسط مكة تقريباً، ويسمى بالساحة الكبرى والدار اللموم، والموسم الحاشر، والمنتدى والمؤتمر، وإبرة المبحر، وقبلة البدوي في قفره، ووجهة القروي في كفره، وحرم الله المطهر. أراده الله على فضاء نقي لم تخالطه نسمات ولائد تولد، ولا عبق من طواهم الثرى.

فصدر الأمر اللدني لإبراهيم النبي خليل الله وصفيّه أن يرفع بذلك الوادي لواء بيت تأمه الأفئدة بوجدان مفعم بالإيمان، وها هي الساحة تعج بالعمار والحجاج، وكلما غامت الحقيقة تحت رجفة الباطل في بضع سنين أرادها بمشيته عبرة وعظة أظهرها الله بعد ذلك في عزة ومنعة، وها هي ثمرات الدعوة الإيمانية تتوالى تارة وفرة في السواعد، وأخرى في الأرزاق، وثالثة عزاً وسلطاناً.

وكان المسجد الحرام هو الموضع المختار من قبله تعالى، وحسبما قضت مشيته موئلاً للعلم والعلماء.. للعمار والحجاج.. للراغبين في الأمن والسلام.

فاللّهم احفظ علينا أنعمك التي لا تعد ولا تحصى.

المسجد الحرام في القرآن الكريم:

ذُكر المسجد الحرام في الكتاب الكريم في خمسة عشر موضعاً تفردت سورة البقرة بستة مواضع منها..

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[1].

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٤.

رَبِّكَ﴾[١].

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[٢].

الموضع الرابع: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[٣].

الموضع الخامس: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[٤].

الموضع السادس: قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ﴾[٥].

الموضع السابع: قوله تعالى: ﴿أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[٦].

الموضع الثامن: قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[٧].

الموضع التاسع: قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[٨].

الموضع العاشر: قوله تعالى: ﴿وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[٩].

الموضع الحادي عشر: قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾[١٠].

الموضع الثاني عشر: قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾[١١].

الموضع الثالث عشر: قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٠.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩١.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.
(٦) سورة المائدة، الآية: ٢.
(٧) سورة الأنفال، الآية: ٣٤،
(٨) سورة التوبة، الآية: ٧.
(٩) سورة التوبة، الآية: ١٩.
(١٠) سورة التوبة، الآية: ٢٨.
(١١) سورة الإسراء، الآية: ١.

ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾[١].

الموضع الرابع عشر: قوله تعالى: ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[٢].

الموضع الخامس عشر: قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾[٣].

هذا وقد ذكر الماوردي أن كل موضع ذكر الله فيه المسجد الحرام، المراد به الحرم إلا في قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[٤]، فالمقصود هنا الكعبة.

وقيل: إن المقصود في قوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾[٥] مكة، فقد روي أن الإسراء تم من بيت أم هانىء وهو بيت أبي طالب.

ومنها ما أريد به الحرم كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾[٦].

ومما ذكر في حديث ميمونة ﵂، قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا مسجد الكعبة»**[٧] وفي رواية أخرى **«إلا الكعبة»**، وفيما رواه ابن ماجه: «... **وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه**»[٨].

نخلص من ذلك إلى أن كل ما ذكر يندرج تحت الاسم المذكور في القرآن، إلا أن الإطلاق ينبغي أن ينصرف إلى المسجد الذي قدر به الطواف، ولهذا ورد (كنا في المسجد الحرام) (خرجنا من المسجد الحرام) وهذا ما تعارف عليه الناس.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٥.
(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٥
(٣) سورة الفتح، الآية: ٢٧.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٤٩.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ١.
(٦) سورة التوبة، الآية: ٢٨.
(٧) رواه مسلم ـ كتاب الحج ٢/ ١٠١٤.
(٨) رواه ابن ماجة في سننه ـ كتاب الصلاة ١/ ٤٥١، وإسناده صحيح.

المسجد الحرام بين الأمس واليوم:

أسلفت أن المسجد الحرام منذ ابتنى الكعبة المعظمة إبراهيم الخليل وولده إسماعيل عليهما السلام، وإلى أن آل أمر مكة إلى قصي بن كلاب، لم يكن يعدو فسحة واسعة حول البيت، لم تشيد حولها دور قط، ولم يعل جدار عنها، فكانت ترى بالعين من كل موضع بمكة. ولما استولى قصي على مكة وانتزع مفتاح الكعبة من خزاعة بعد حروب مريرة، أمر بطون قريش أن يبتنوا بيوتهم حول الكعبة من جهاتها الأربع، حتى يهابهم الناس، ولا يستحل أحد قتالهم. فبدأ هو أولاً وابتنى دار الندوة في الجانب الشمالي، واتبعه القوم، وشرعوا أبواب بيوتهم إلى نحو الكعبة المشرفة، وتركوا للطائفين مقدار مدار المطاف.

عمر بن الخطاب وتوسعة المسجد الحرام:

ظل هذا القدر المتروك للطائفين حتى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي قام بأول توسعة وبناء للمسجد الحرام عام سبعة عشر هجرية إثر سيل عظيم عرف بسيل «أم نهشل»[1]، وآخر انحدر من وادي إبراهيم الخليل عليه السلام فاقتلع مقام إبراهيم من موضعه ووجد في أسفل مكة بعد ما جف الماء. فأتى به وألصقه بالكعبة وربطه بها بعدما استشار صحابته في أمره[2]. وبدأ في توسعة المسجد الذي ضاق بالمصلين والطائفين، فاشترى الدور الملاصقة للمسجد، وهدمها وأدخلها في المسجد، ثم أمر بعمل «الردم» «بالمدعا» بأعلى مكة صوناً للمسجد الحرام من أن يدخله السيل ثانية، فكان من جراء ذلك أن تحول مجرى السيل الذي ينحدر من المدعا إلى مجرى وادي إبراهيم. وقد كان هذا السيل قبلاً ينحدر من المدعا إلى جهة المسعى، ويدخل من جهة باب السلام إلى المسجد الحرام،

---

(١) سمي السيل بهذا الاسم نسبة إلى أم نهشل بنت عبيدة بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس لأنها جرفت وماتت فيه، فسمي باسمها.

(٢) علم عمر بأحداث السيل، وكان في المدينة فركب من ساعته فزعاً إلى مكة، فدخلها بعمرة في شهر رمضان سنة ١٧ هـ فلما بلغ الكعبة وقف عند حجر المقام ثم قال: أنشد الله عبداً عنده علم في هذا المقام، فقال عبد المطلب بن أبي وداعة السهمي رضي الله عنه: أنا يا أمير المؤمنين عندي علم بذلك، فقد كنت أخشى عليه قبل هذا الأمر، فأخذت قدره من موضعه إلى باب الحجر، ومن موضعه إلى زمزم، وهو عندي في البيت. فقال عمر: اجلس عندي وأرسل إليه من يأتي به ففعل، فقيس ووضع حجر المقام في مجلسه الذي كان فيه، وهو الموضع الذي هو فيه في العصر الحاضر ـ منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال على مسند أحمد بن حنبل ٥/ ٤٧.

فبناه أمير المؤمنين بالصخور العظام وردمه التراب فسار أشبه بالسد، فلم يعله سيل بعد ذلك، وسمي «ردم بني جمح»[1] غير أن سيل عام ٢٠٢هـ كان أقوى من هذه التحصينات، فقد اجترف هذه السواتر الترابية، وأبان عن الصخور العظام التي لم ير مثلها.

في عهد عثمان بن عفان:

وفي عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ تمت التوسعة الثانية عام ٢٦هـ، إذ ضاق المسجد بالمصلين، فاشترى عثمان ﷺ دوراً من تلك التي حول الكعبة المشرفة وهدمها وأدخلها في الحرم، هذا وقد جعل عثمان بن عفان ﷺ للمسجد أروقة، فكان أول من اتخذ الأروقة فيه.

في عهد عبد الله بن الزبير:

كذلك فعل عبد الله بن الزبير ﷺ سنة ٦٥هـ، فقد اشترى دوراً كثيرة من الجهة الجنوبية والشمالية وهدمها، وأدخلها في المسجد، وزاد في بناء الأروقة والسقوف.

في عهد عبد الملك بن مروان:

أما الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان فلم يزد شيئاً على مساحة المسجد الحرام، لكن إصلاحاته توجهت إلى رفع جداره وتسقيفه بالساج، وجعل على رأس كل أسطوانة خمسين مثقالاً من الذهب، فانحصرت عمارة عبد الملك في تجديد البناء وتزيينه، وكان ذلك عام ٧٥هـ.

في عهد الوليد بن عبد الملك:

أما الوليد فقد عاد إلى توسعة المسجد وعمارته عمارة متينة محكمة، واستخدم أساطين الرخام المجلوب من مصر والشام، وزين المسجد بالفسيفساء وغيرها. وكانت زيادة الوليد من الجهة الشرقية، وكان ذلك عام ٩١هـ.

---

(١) يرجع سبب التسمية إلى أن منازل بني جمح كانت بهذا الموضع، ويعد هذا الردم أول سد في مكة.

في عهد أبي جعفر المنصور:

وفي سنة ١٣٧هـ، أمر أبو جعفر المنصور بزيادة أخرى في المسجد الحرام، وتركزت الزيادة في شقه الشامي الذي يلي دار الندوة. وزاد في أسفله إلى أن انتهى إلى منارة باب العمرة، ومنها على خط مستقيم من الجهة الغربية إلى ما يلي باب إبراهيم. كذلك قام بتزيينه فألبس المسجد من داخله وخارجه وأعلاه المرمر، ودام العمل فيه ثلاث أعوام كاملة.

في عهد المهدي بن المنصور:

وفي عام ١٦٧هـ، قام المهدي بأكبر توسعة للمسجد، فاشترى الدور المحيطة به من جهاته الأربع، وأنفق أموالاً طائلة على هذه التوسعة، كذلك قام بتزيين المسجد ونقل إليه أحجار الرخام والأعمدة الرخامية. وظل البناء شامخاً صامداً لم يعتره وهن أكثر من ثمانمائة عام.

في عهد السلطان سليم وولده مراد خان:

وفي سنة ٩٧٩هـ في عهد السلطان سليم، حدث ميل في الرواق الشرقي إلى نحو الكعبة المشرفة بان على أثره أجزاء من خشب السقوف، فكان أمره أن استبدل بهذه السقوف الخشبية القباب التي بنيت على أحدث الطرق آنذاك، والتي نراها إلى الآن غاية في الروعة والإبداع والإتقان. وقد توفي السلطان سليم ولم ينجز البناء فأكمله ولده مراد خان[١].

التوسعة الأخيرة لأسرة الملك عبد العزيز آل سعود:

والتي بدأت في نهاية حكم الملك عبد العزيز آل سعود واستكملها الملك فيصل بن عبد العزيز والملك خالد بن عبد العزيز والملك فهد بن عبد العزيز.

ففي عام ١٣٧٥هـ قامت المملكة العربية السعودية بتوسعة المسجد الحرام على أسس هندسية علمية وبأحدث الخبرات. فبلغت سعته بطابقيه ١٦٠٨٦١ متراً مربعاً، وكانت قبلاً ٢٩١٢٧ متراً مربعاً، بحيث يتسع المسجد لحوالي ثلاثمائة ألف مصلٍّ في وقت واحد، وتناول الإصلاح والتوسعة كل ما في المسجد، وأدخل المسعى ضمن المسجد الحرام.

---

(١) مرآة الحرمين، اللواء إبراهيم رفعت باشا ج ١، ص: ٢٣٥.

وزيدت أعداد أبوابه، وجعلت زمزم في متناول كل حاج. فتعددت صنابير زمزم. هذا بالإضافة إلى إمداد الحجاج والمعتمرين بماء زمزم المبرد دائماً.

كذلك قامت بتغطية ساحة المسجد بالرخام المصنوع خصيصاً بأساليب علمية من شأنها أن تعكس حرارة الجو حتى لا يتأذّى الطائفون والراكعون والساجدون.

وناهيك عن فرشه بالمفارش المصنعة خصيصاً للمسجد الحرام، وكذا إنارته وتبريده، ووقف المبالغ الطائلة للمحافظة على نظافته وصيانته. فبات البناء آية في الروعة وغاية في الإتقان الذي يليق بعظمة هذا البيت[1].

النساء والصلاة بالمسجد الحرام:

كانت المرأة تخرج إلى الصلاة في المسجد الحرام مع الرجال، غير أنها كانت تقف في المؤخرة بعد الرجال والصبيان، كما ورد أمر رسول الله ﷺ على أنه لم يؤثر تحديد لمكان خاص بهن وحدهن، وإنما كان الأمر معلقاً بحسب العدد الموجود بالمسجد.

وفي عام ١٣٢٠هـ وضع حاجز خشبي على ارتفاع مترين تصلي النساء من ورائه غير أن أمير مكة عون رفعت باشا رفع هذا الفاصل عام ١٣٢٥هـ.

وفي هذه الآونة حددت أماكن خاصة بالنساء لا ينبغي تجاوزها أو الصلاة في سواها سواء زاد تعداد المصلين من الرجال وامتلأت الأماكن المخصصة لهم أم لا.

كذلك يشرف رجال تقاة يصطفون حول الكعبة على الطواف حتى لا يزاحم الرجال النساء. كما يقف مسؤول ببذته العسكرية عند الحجر الأسود لتنظيم ذلك.

مقام إبراهيم:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[2]، والمقصود بمقام إبراهيم الحجر الذي قام عليه إبراهيم عليه السلام عند بناء

(١) في رحاب البيت الحرام ـ لمحمد بن علوي عباس المالكي، ص: ٢٠٣، مقالات من جريدة الندوة التي تصدر بمكة.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

الكعبة، وكان يرتفع به كلما ارتفع البناء، وكان ولده إسماعيل يناوله الحجارة فيضعها بيده، وكلما أكمل ناحية انتقل إلى أخرى وهو يطوف حول الكعبة.

ومن المعجزات الباقية إلى يومنا هذا آثار أقدام الخليل ﷺ على الحجر الذي وقف عليه، إذ صار الحجر تحت قدميه رطباً فغاصت فيه قدماه[1]، وقد تغير عن هيئته الأصلية لكثرة ما مسحه الناس بأيديهم، وهو الآن موضوع داخل مقصورة نحاسية، ولقد عرف العرب هذه المعجزة الإبراهيمية في جاهليتهم.

يقول أبو طالب في لاميته الشهيرة:

وموطىء إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل

ومقام إبراهيم ﷺ حجر لونه ما بين الصفرة والحمرة، وهو إلى البياض أقرب، ويمكن حمله بيسر.

وفي هذا الحجر الشريف غاصت قدما خليل الله تعالى سيدنا إبراهيم ﷺ.

وحجر المقام كله ملبس بالفضة الخالصة، فلا تبدو حقيقة الحجر إلا من باطن حفرة القدمين وجوانبهما، وإن باطنهما غير مستو بل فيهما بعض نتوءات صغيرة.

ولقد كان الحجر داخل مقصورة نحاسية مربعة الشكل، وعليها قبة قائمة على أربعة أعمدة إلا أن كثرة الحجيج في الآونة الأخيرة أوجبت توسعة المطاف بعد أن ضاق بالطائفين.. فكان وجود القبة عائقاً لهذه التوسعة. ودارت المناقشات بين علماء المسلمين حول ضرورة نقل المقام من موضعه، واختلفت الآراء ما بين مانع ومجيز، إلى أن صدر قرار رابطة العالم الإسلامي في جلسة الرابطة المنعقدة بتاريخ ٢٥ من ذي الحجة ١٣٨٤هـ بالموافقة على إزالة جميع الزوائد الموجودة حول المقام، وإبقاء المقام في مكانه ووضعه في صندوق زجاجي سميك على قدر الحجر وبارتفاع مناسب، بحيث لا يعيق حركة الطواف، ويشاهده الحجيج من كل اتجاه. وتم صنع الغطاء البلوري وأحيط بحاجز حديدي، وعملت له قاعدة من الرخام نصبت حول المقام لا تزيد مساحتها على ١٨٠ × ١٣٠ سم بارتفاع ٧٥سم، وتم ذلك عام ١٣٨٧هـ في غرة رجب.

(١) في رحاب البيت الحرام ـ لمحمد علوي المالكي ـ، ص: ٢١٩.

وقد أزاح الملك فيصل بن عبد العزيز الستار عن الغطاء البلوري في حفل إسلامي ضخم عصر السبت الموافق ١٨ من رجب ١٣٨٧هـ.

هذا وقد دلت الأخبار على أن المقام لم يتغير عن مكانه الذي كان فيه منذ عهد إبراهيم عليه السلام، وليس صحيحاً ما قيل عن نقله من موضعه إلى موضع آخر على أطراف المسجد الحرام.

مقام إبراهيم في القرآن الكريم والسنة المطهرة:

ذكر الله تعالى مقام إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «**إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما، ولو لم يطمس نورهما لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب**»[2].

وقد خص الله تعالى الأمة الإسلامية بهذين الأثرين فجعل الحجر الأسود مبدأ الطواف بالبيت ومنتهاه، وجعل مقام إبراهيم متخذاً للصلاة.

ومن فضائل مقام إبراهيم عليه السلام استجابة الدعاء عنده.

الصفا والمروة:

الصفا قطعة من جبل أبي قبيس، تقع في الجهة الجنوبية من المسجد الحرام، طولها ستة أمتار وعرضها يقرب من ذلك. وهي مرتفعة عن الأرض بنحو مترين.

والمروة قطعة من جبل قعيقعان، الذي يقع في الجهة الشمالية الشرقية من المسجد وهي منتهى السعي. وما بين الصفا والمروة مسافة السعي التي يبلغ طولها أربعمائة متر وخمسة أمتار شملتها عمارة المسجد أيضاً، وكانت من قبل منفصلة عنه إلا أنها أدخلت فيه واعتبرت منه، وعلى طول مسافة السعي فتحت الأبواب التي تبدأ بباب الصفا وتنتهي بباب المروة.

هذا والسعى مقسم إلى ثلاثة أقسام، يمشي الساعي في القسمين المتطرفين

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث غريب ـ أبواب الحج ٢/ ١٨٢.

يهرول في القسم الأوسط ـ ولا هرولة للنساء ـ والقسم الأول من الصفا إلى الميلين الأخضرين، وهما عمودان أخضران أحدهما في الحائط المقابل للمسجد، وثانيهما يحاذي الأول بجوار باب المسجد الحرام المسمى «باب بغلة»، وطول هذا القسم خمسة وسبعون متراً، أما القسم الأوسط فمن هذين الميلين إلى ميلين آخرين أحدهما بباب المسجد المسمى «باب علي» والآخر في الحائط المقابل لجدر المسجد في الناحية الثانية، ويبلغ طول هذا القسم حوالي سبعين متراً.

ويبدأ القسم الثالث من هذين الميلين الأخضرين إلى المروة وطوله ٢٦٠ متراً، وأول من أحدث بناء ودرجاً في الصفا والمروة عبد الصمد بن علي في خلافة أبي جعفر المنصور. وفي التوسعة الأخيرة عُبِّدَ الطريقُ بينهما، وأصبح الارتفاع عند الجبلين ممهَّداً يسيراً، وقد غطِّي تماماً بالرخام العازل للحرارة فلا يشعر من يرتقيهما بأية مشقة، هذا وقد جعل للسعي طابقاً ثانياً ليمكن استيعاب الأعداد الغفيرة التي تفد إليه.

الصفا والمروة في القرآن الكريم:

ذكر الله تعالى الصفا والمروة في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[1].

وكان المسلمون قد تحرجوا من السعي بين الصفا والمروة، حيث كان في الجاهلية على الصفا وثن يقال له «أُسافاً» وآخر على المروة يسمى «نائلة». وكان الوثنيون إذا طافوا بالبيت مسحوا الوثنين فأنزل الله تعالى الآية الكريمة.

فضل الصفا والمروة:

للصفا والمروة فضل عظيم. فعلاوة على أن السعي بينهما من فرائض الحج وله جزاؤه عند الله تعالى، فإن الدعاء عندهما مستجاب لما روي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر ﷺ: «أن النبي ﷺ لما فرغ من طوافه فبدأ بالصفا فرقى

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٨.

عليها حتى بدا له البيت فوحَّد الله وحمده وكبّره ثلاث مرات ثم دعا بما قدر له»[١].

وروي عن جابر بن عبد الله ﷺ: «أن النبي ﷺ لما دنا من الصفا قرأ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾... الآية، ثم قال: «أبدأ بما بدأ الله به». فرقى عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره، وقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده»، ثم دعا بعد ذلك فقال مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة حتى انصبت قدماه في بطن الوادي حتى إذا صعدنا مشى حتى أتى المروة ففعل على المروة كما فعل على الصفا[٢].

المنبر:

أُحْدِث المنبر في العهد الأموي وجدِّد في العهد العباسي وتوالى عمل المنابر للمسجد الحرام على توالي العهود وكان آخرها المنبر الذي أهداه السلطان سليمان خان العثماني، وهو مصنوع من حجر الرخام المرمري البراق الناصع البياض والقائم بفناء المسجد الحرام، ويحتوي على ثلاث عشرة درجة، وارتفاعه عشرون ذراعاً، ويمتاز بأن الشمس لا تصل فيه إلى موضع الخطيب في أي وقت من السنة.

---

(١) رواه النسائي في سننه ـ كتاب مناسك الحج ٥/ ٢٤١.

(٢) رواه مسلم كتاب الحج ٢/ ٨٨٧.

زمزم

أسماؤها:

قالوا عنها: شباعة، ومروية، ونافعة، وعافية، وميمونة، وبركة، وبرة، ومضنونة، وكافية، ومعذبة، وشفاء سقم، وطعام طعم، وهزمة جبريل، وسقيا إسماعيل.

فأما زمزم فتقرأ بفتح الزاي وسكون الميم «زَمْزم»، وتقرأ بفتحها أيضاً وتشديد الميم «زَمَّزم»، وتقرأ أيضاً بكسر الزايين وتشديد الميم «زِمِّزم».

سميت بهذا الاسم لعدة وجوه: فقيل لكثرة مائها، فتكون مشتقة من قولهم ماء زمزوم وزمزام، أي كثير، وقيل لزمزمة الماء فيها، أي حركته، وقيل لزمزمة جبريل عليه السلام أي كلامه.

وقيل: «الزَّمْزَمَة» هي الصوت البعيد الذي له دوي وتتابع كصوت الرعد، وهو أحسنه صوتاً وألينه مطراً. وقيل: الزَّمْزَمَة هي الصوت الخفي، وقيل أيضاً لِزَمٌ هاجر الماء حين انفجرت العين.

وقيل سميت بذلك لأن عبد المطلب رأى في منامه أن قائلاً يقول له: «احفر زَمْزَم».

شَبَّاعَة: أما شباعة فهي من الشبع ضد الجوع، وسميت بذلك لحصول الشبع عند شربها إن قصد الشارب ذلك.

مُرْوِية: أما مروية فمن الري ضد الظمأ.

نافعة: أما تسميتها بنافعة: فلكثرة منافعها التي لا حصر لها. فمنها على سبيل المثال لا الحصر أنها تقوي القلب، وتسكن الروع، وتطفىء نار الحزن.

عافية: وسميت بعافية لدفعها الكثير من العلل والأوبئة. فلكم أبرأ الله بمائها

من الأمراض ما لا يعد ولا يحصى. وكفى أن الحجيج على كثرتهم يتوافدون من كل أقطار الدنيا ويريدون منهلها العذب، فلا عدوى ولا مرض، وإنما شفاء وإبراء.

ميمونة: وقيل في تسميتها بميمونة «اليمن وهو البركة»: إن بركتها مأثورة، فقد شربها أقوام بنيات شتى ومآرب كثيرة فجبر الله ببركتها خواطرهم جميعاً.

بَرّة: أما بَرّة فمن البر ضد العقوق، أي ذات بر وإحسان لشاربها لما يناله ويحصل له من بركتها.

مَضْنُونَة: وأما مضنونة فمن ضَنَّ به يضن ضنّاً، إذا منعه من غيره لنفاسته، وسميت بذلك لأن الناس يضن بعضهم على بعض بها لكونها نفيسة. وقد منع الله منها قوماً من العرب سكنوا حولها، فعصوا وتهاونوا بكرامة الكعبة فطردهم الله منها، ومنعهم إياها.

كافية: أما كافية فمن الكفاية، أي التي تكفي من شربها عن الميل والطلب لغيرها لما يحصل له من الري بها.

مُعْذِبة: أما معذبة فمن أعذب الماء، إذا صار عذباً، أي صار مانعاً للعطش لحلاوته.

شِفَاء سَقَم: وتسميتها بذلك لأنها سبب في شفاء الكثير من الأسقام والآلام.

طَعَام طعم: وتأتي بمعنى شباعة التي ورد ذكرها آنفاً.

هَزْمَةُ جبريل: أما هَزْمَةُ جبريل من هزمه يهزمه، إذا غمزه بيده فصارت فيه حفرة، أو إذا همزه فضغطه ودفعه، وسميت بذلك لضرب جبريل ﷺ إياها بعقبه. ولأن عبد المطلب رأى في منامه قائلاً يقول له: زمزم وما زمزم هزمة جبريل برجله، وسقيا إسماعيل وأهله، زمزم البركات تروي الرفات الواردات، شفاء سقم وخير طعام.

تاريخ زمزم:

أول من أظهرها جبريل ﷺ إحياء لنفس إسماعيل ﷺ بعدما كاد أن يقتله الظمأ[1].

(١) ذكر في التوراة والإنجيل أن إسماعيل ولد سنة ١٩١٠ ق.م. وهذا التاريخ يتفق مع ما ذكره =

وأول من قام عليها هاجر وإسماعيل عليهما السلام.

وأول قبيلة سكنتها جرهم من اليمن، وكانت القافلة عائدة من الشام فرأت الطير عندها فاستأذنوا هاجر في جوارها، فأذنت لهم بشروط منها ألا يمنعوا أحداً من زمزم.

وأول من حفر زمزم بعدما نبعت العين إبراهيم الخليل عليه السلام.

وتطاولت الأيام على ذلك حتى طمرت زمزم، واختفت معالمها ولم يبق لها أثر.

وقيل في أخبار مكة: إن زمزم غيبت واندثرت معالمها لما فعله نفر من جرهم بالحرم، إذ استخفوا به وتهاونوا بحرمة البيت، وأكلوا مال الكعبة. وذكر أيضاً أن سيداً من سادات مكة وهو مضاض بن عمرو الجرهمي كان قد اشتبك في حرب مع أعدائه من خزاعة انتهت بهزيمته، وأدرك أن أعداءه لن يلبثوا أن يخرجوه من مكة لا محالة، فرأى أن يحرمهم مائها نكاية لهم فأخفى في بئر زمزم بعض نفائس البيت ثم ردمها، وأخفى معالمها، وساعدته الطبيعة على إحكام إخفائها، فتكاثرت الرمال عليها حتى اندثرت، ثم فر مضاض إلى اليمن.

ثم أظهرها عبد المطلب جدّ النبي ﷺ بعلامات عرف بها موضعها في رؤية رآها، فلما أراد حفرها حسدته بطون قريش. وهموا أن يمنعوه فكفاه الله شرهم، فنذر لئن رزقه الله عشرة من الولد ـ يمنعونه ـ أن يتقرب إلى الله بذبح أحدهم، فلما تم العدد عشرة أعلمهم بنذره، فقالوا له: اقض فينا أمرك، وأوف بنذرك، فأسهم بينهم، فخرج السهم على عبد الله، فلما أراد أن يذبحه منعته قريش لئلا يكون فيهم سنة، فأفتاه كاهن أن يسهم عليه وعلى عشر من الإبل. وكانت العشر عندهم دية الرجل، ففعل فخرج السهم على عبد الله. فقال له الكاهن: زد عشراً فإن ربك لم يرض، فزاد عشراً فخرج السهم على عبد الله فقال: زد عشراً، فزاد عشراً فلم يزل السهم يخرج على عبد الله حتى بلغ العدد مائة، فخرج السهم على

= المسعودي. وكان قدوم إسماعيل إلى مكة مع والديه في سنة مولده. وما دام مولد إسماعيل كان سنة ١٩١٠ ق.م وهو العام الذي قدم فيه إلى مكة، وهنا يمكننا أن نقول: إن ظهور زمزم كان في هذه السنة تقريباً أي قبل ميلاد رسولنا بحوالي ٢٥٧٢ عاماً، فعمر زمزم على هذا النحو قرابة أربعة آلاف سنة.

الإبل. فقال له: أعد القرعة، فأعادها، فخرج على الإبل، ثم أعادها فخرج على الإبل، فقال له: قد رضي ربك، فانحرها فداء لابنك ففعل، فاستمرت الدية في قريش مائة من الإبل، ثم جاء الشرع فقدرها دية الحل من المسلمين[١].

ولبث عبد المطلب يسقي الناس حتى توفي، وتبعه العباس بن عبد المطلب، وظل عليها حتى بعد فتح مكة على يد رسول الله ﷺ.

وتقع بئر زمزم شرق الكعبة المشرفة وتحاذي الملتزم، وبينها وبين الكعبة أربعون ذراعاً، وتغذي بئر زمزم ثلاثة مصادر: عين حذاء الحجر الأسود، وعين حذاء أبي قبيس والصفا، وعين حذاء المروة.

مصادر زمزم:

يروي الدارقطني في سننه عن ابن سيرين أن زنجياً وقع في بئر زمزم فمات، فأمر ابن عباس فأخرج، وأمر بها أن تنزح فغلبتهم عين جاءت من الركن، فأمر بها فسدت حتى نزحوها، فلما نزحوها انفجرت عليهم.

وما رواه ابن شيبة بإسناد صحيح عن عطاء: أن حبشياً وقع في زمزم فمات، فأمر عبد الله بن الزبير بنزح مائها فجعل الماء لا ينقطع، فنظر فإذا هي عين تجري من قبل الحجر الأسود، فقال ابن الزبير: حسبكم، وقال العمري في «مسالك الأبصار»: وقد وقع فيها حبشي فمات فنزحت من أجله فوجدوا ماءها يثور من ثلاث عيون أقواها ماء عين من ناحية الحجر الأسود[٢].

نخلص من هاتين الروايتين وما أيدهما مما ذكره المؤرخون إلى أن ماء زمزم ينبع من ثلاث عيون كما سبق أن أوضحنا، على أنه قد تم في عام ١٤٠٠هـ إثر أحداث الحرم الأليمة إجراء عملية تطهير وتنظيف لبئر زمزم، واستطاع نخبة من العلماء المتخصصين الوصول إلى قياسات دقيقة للبئر، ومشاهدة جدرانه، ومصادر المياه الرئيسية له، وذلك بعد ضخ الماء إلى مستوى أدنى من هذه المصادر، وتم تصوير ذلك سينمائياً وفوتوغرافياً عن طريق استخدام أحدث آلات التصوير

(١) حدائق الأنوار ومطالع الأسرار لابن الربيع الشيباني، ص: ٩٨ ـ طبقات ابن سعد، ج ١، ص: ٤٩، ٥٣ ـ تاريخ الطبري ج ٢، ص: ٢٤٠ ـ ٢٤٣.

(٢) تاريخ عمارة المسجد لمحمد باسلامة، ص: ١٧١.

والتسجيل التي كانت بمصاحبة الغواصين، فتبين لهم أن قطر البئر حوالي أربعة أمتار، وأما جداره من الداخل فهو محكوم التليس بعمق أربعة عشر متراً وثمانين سنتيمتراً من فوهة البئر إلى القاع..

وقد علل الباحثون ذلك بأنه ربما حدث ذلك نتيجة سقوط المياه من المصادر الرئيسية بصفة دائمة.

أو أن هذه الظاهرة نجمت عن احتكاك حبال الدلاء بالصخور أزماناً طويلة.

أما كون بعضها غائراً والآخر سطحياً، فذلك راجع إلى مدى ثقل الماء المحمول في الدلاء، الذي يؤثر بالتالي على قوة احتكاك الحبال في الصخر عند جذبها، خصوصاً وقد أكدت كتب المؤرخين أن اثنتي عشرة بكرة لجلب الماء من البئر كانت مثبتة عند فتحة بئر زمزم[1].

زمزم بين الأمس واليوم:

عني الخلفاء والحكام أيما عناية ببئر زمزم، فكانوا دائماً يولون جهدهم لعمارة البيت وإدخال التحسينات عليه في كل عصر، وكان لزمزم نصيب كبير من هذه التحسينات، لأنه ما من زائر حاج أو معتمر أو من سكانها أيضاً إلا وله عقيدة في استحباب الدواء من زمزم.

وفي سنة ١٣٤٦هـ وفي عهد الملك عبد العزيز آل سعود، أمر بعمل سبيلين أحدهما بالجهة الشرقية مما يلي باب قبة زمزم، والثاني بجوار حجرة الأغوات من الجهة الجنوبية لبيت زمزم بجوار السبيل القديم. وقام بهذا العمل الشيخ عبد الله الدهلوي. وكتب على السبيل الأول: هذا السبيل ـ أنشأه الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمٰن السعود.. وكتب على السبيل الآخر: أنشأ هذا السبيل الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمٰن السعود.

وقد طليت بالذهب، وتكلفت حوالي ثلاثمائة جنيه ذهباً.. وصارت هذه السبل الثلاثة سقاية لمن يريد شرب ماء زمزم من الحجاج والمعتمرين والمجاورين.

وفي سنة ١٣٥٥هـ دعا الملك عبد العزيز إلى توسعة المسجد الحرام

(١) زمزم طعام طعم وشفاء سقم للمهندس يحيى كوشك ص: ٦٠ ـ ٦١.

لمواجهة الزيادة المضطردة في أعداد الحجاج. تلك العمارة التي استغرقت عشرين عاماً، كان لزمزم نصيب كبير في هذه التوسعة.

فمن توسعة المطاف هدم البناء الذي فوق بئر زمزم، وخفضت فوهة البئر أسفل المطاف بالقرب من المحيط الخارجي لدائرة المطاف، يحده من ناحية الكعبة جدار نصف دائري يبلغ نصف قطره ٤٩٠ سنتيمتراً ويحده من الجوانب الأخرى حاجز مستطيل.

ويمكن الوصول إلى منسوب الأرض المحيطة بالبئر عن طريق درج من الجهة الشرقية بعرض ١٤,٧٦ مكون من ٢٤ درجة تؤدي إلى مكان فيه الصنابير مساحته ١٥٨٨ × ٨٤٨ سنتيمتراً وعلى عمق ٢٧٠ سنتيمتراً تحت المطاف، وتبلغ مساحة مكان الشرب ١٠٠٧٤ سنتيمتراً مربعاً، منها ٥٤٢٧ سنتيمتراً مخصصة للرجال و٤٦٤٧ سنتيمتراً مربعاً للنساء. ويتكون الجانب الشرقي في غرفة البئر من هيكل من الصلب، وتمكن مشاهدة البئر خلال القضبان. ويمكن أيضاً الوصول إلى البئر خلال أبواب ثبتت في هذا الهيكل الحديدي لا تفتح عادة.

ولقد كانت صنابير المياه في قسم الرجال والنساء متصلة بخزانين تحت الأرض على جانبي درج زمزم غير أنها وصلت أخيراً بخزان باب السلام بعد أن أصبحت المياه معقمة بالأشعة فوق البنفسجية[١].

وكانت زمزم قبل ذلك تستخرج من البئر بواسطة الدلاء في خزان مكشوف من أعلى. وكان الحاج أو المعتمر يدلي بإنائه لكي يشرب، كما كانت هناك مغاريف ربطت بسلسلة إلى الصنابير ليغترف بها من ماء زمزم. ونظراً لما كان لهذه الطريقة من أضرار صحية، ونتيجة للتطور الذي حدث في المملكة العربية السعودية فقد تم تركيب مضخة في بئر زمزم تضخ الماء إلى خزان علوي من الزنك، ومنه إلى الصنابير الموزعة حول البئر، مما جعل ماء زمزم بهذه الطريقة أكثر عذوبة إذ كانت الدلاء تأخذ حاجتها من سطح البئر، أما المضخة فتأخذ من عمق مترين تحت الأرض، وقد قدم الفكرة وأشرف على تركيبها السيد حمزة كوشك[٢].

---

(١) زمزم طعام طعم وشفاء سقم للمهندس يحيى حمزة كوشك ص: ٤٦.

(٢) المرجع السابق، ص: ٤٤.

وها هي الآن في متناول الجميع معقمة بعد أن تم تجهيزها بوحدة تعقيم بالأشعة فوق البنفسجية، وهي أيضاً مبردة حيث تم إنشاء وحدة تبريد حديثة خاصة بها، ويقوم بالإشراف على ذلك أخصائيون يخضعون للرقابة الصحية. أما العمال القائمون بالتعبئة فتراهم دائماً في بزة خاصة يضعون القفازات الجلدية عند تغيير أو تبريد الماء في الثلاجات الصغيرة والمتراصة بشكل جميل في أنحاء المسجد الحرام.

زمزم عام ١٤٠٥ ـ ١٤٠٦هـ:

ازدادت بفضل الله وكرمه القدرة الإنتاجية للبئر فأصبحت ٢٨٠ جالوناً في الدقيقة بعد أن كانت تتراوح بين ١٦٤,٥ إلى ٢١٧,٥ جالون في الدقيقة.

أصبح للمدينة المنورة نصيب في ماء زمزم بعد أن زودت بها ليتمكن زوار مسجد رسول الله ﷺ من التبرك بشربها.

أقيم معمل تحاليل خاص ببئر زمزم مجهز بأحدث ما وصل إليه العلم من معدات، ويقوم هذا المعمل بالتحاليل والمراقبة الصحية لماء زمزم.

تمت زيادة طاقة أجهزة التعقيم بالأشعة فوق البنفسجية بإضافة وحدات جديدة.

تم تركيب مرشحات مصنعة من مادة بي في سي، تعمل بمضخات كهربائية سعة ٢٠٠ جالون في الدقيقة، لحجز الشوائب والمواد العالقة في ماء زمزم لأكثر من ٣ ميكرون. وبذلك رفعت نسبة التعقيم إلى الضعف.

تم إنشاء مبرد ذي سعة كبيرة في مبنى خاص خارج الحرم لتبريد ماء زمزم للزوار والمعتمرين والحجاج طوال العام.

تم تصنيع الثلج من ماء زمزم، وزودت به الثلاجات الصغيرة المنتشرة داخل الحرم والتي يبلغ عددها حوالي الثلاث آلاف ثلاجة.

صارت لماء زمزم شبكتان.

الأولى: وتعمل عليها ثلاث مضخات كهربائية تقوم بضخ الماء إلى الخزان العلوي عند باب السلام والذي يسع ٦٠ متراً مكعباً. ويمر بماء زمزم بعد ذلك من الخزان إلى المرشحات لإزالة أي مواد عالقة أو شوائب تكون قد حملت مع

الماء. ثم إلى أجهزة الأشعة فوق البنفسجية التي تقوم بالقضاء على أي ميكروبات في الماء. ثم يمر الماء بعد تمام تعقيمه إلى الشبكة الداخلية للحرم.

الثانية: وتعمل عليها مضخة كهربائية تقوم بضخ الماء من البئر إلى المبرد الكبير خارج الحرم في نظام مغلق، ومنه إلى المرشحات وأجهزة الأشعة ثم إلى أجهزة التبريد ليصبح الماء معقماً مثلجاً صالحاً للشرب والاستعمال، ثم إلى شبكة الماء المثلج، ومنها إلى المكان المخصص لشرب ووضوء الرجال والمكان المخصص لشرب ووضوء النساء. ثم إلى سبعة عشر مجمعاً يحتوي كل مجمع على ستة عشر صنبوراً. تسعة مجمعات في الدور العلوي وثمانية في الدور السفلي.

المواصفات البكتيريولوجية لماء زمزم:

ماء زمزم خالٍ من الميكروبات، صالح للشرب والاستعمال الآدمي، ويبين ذلك آخر تحليل تم قبل مثول هذا الكتاب للطبع.

ـ العدد الكلي للميكروبات في الميلليمتر	لا يوجد
ـ المجموعة القولونية لكل مائة ميلليمتر	لا يوجد
ـ بكتريا القولون لكل مائة ميلليمتر	لا يوجد
ـ ميكروب الكوليرا لكل مائة ميلليمتر	لا يوجد
ـ ستربتو كاي لكل مائة ميلليمتر	لا يوجد

المواصفات الطبيعية والكيميائية لماء زمزم:

اللون	عديم
الرائحة	عديم
النشادر بالميللي جرام في الليتر	لا يوجد
النيتريت بالميللي جرام في الليتر	لا يوجد
النترات بالميللي جرام في الليتر	١٦٠ ـ ١٨٠
الكالسيوم بالميللي جرام في الليتر	١٣٠ ـ ١٦٠
الماغنسيوم بالميللي جرام في الليتر	٣٥ ـ ٤٥
الكلورين بالميللي جرام في الليتر	٢٥٠ ـ ٢٩٠
الكبريتات بالميللي جرام في الليتر	٥٠٠ ـ ٥٥٠

كمية الأملاح الذائبة بالميللي جرام في الليتر	١٩٠٠ ـ ٢٠٠٠
الرقم الهيدروجيني	٨

فضل ماء زمزم:

ماء زمزم خير ماء حوته الأرض.. فهو الرواء لكل ظامىء، وهو الدواء لكل سقيم، وهو المناسب لأحوال البطان، المتفق مع المقصود لأجله، وهو الذي أمّن روع الغلام، وأسكن القلوب، واستقطب الجموع الغفيرة، فشرب منه الأبرار، وتبعهم الحجاج والعمار.

وقد وردت في فضله أنباء كثيرة أشرفها أحاديث رسول الله ﷺ يقول ﷺ:

- **«خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم»**[(١)].
- **«من طاف بالبيت سبعاً، وصلى خلف المقام ركعتين، وشرب من ماء زمزم غفرت له ذنوبه كلها بالغة ما بلغت»**[(٢)].
- **«ماء زمزم لما شرب له»**[(٣)].
- **«ماء زمزم لما شرب له. إن شربته تستشفي به شفاك الله، وإن شربته لقطع ظمئك قطعه الله، هي هزمة جبريل وسقيا الله إسماعيل»**[(٤)].
- **«التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق»**[(٥)].
- **«آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم»**[(٦)].
- وقال رسول الله ﷺ لأبي ذر الغفاري: «**متى كنت ها هنا؟**» قال: قلت: كنت ها هنا منذ ثلاثين من بين ليلة ويوم. قال «**فمن كان يطعمك؟**» قلت: ما كان لي طعام إلا زمزم فسمنت حتى تكسر عكن بطني وما وجدت على

---

(١) رواه أحمد ٥/٢٤٨.

(٢) أخرجه الواحدي في تفسيره، وغيره من حديث جابر ﷺ وذكر في مسند أحمد ٥/٣٤٨.

(٣) أخرجه ابن ماجة ـ كتاب المناسك ٢/١٠١٨.

(٤) ذكره السيوطي من حديث ابن عباس، وأخرجه الحاكم والدراقطني، وقال: حديث حسن صحيح.

(٥) حدث به محمد بن يحيى عن الواقدي عن عبد الحميد بن عمران عن خالد بن كيسان عن ابن عباس.

(٦) رواه ابن ماجه ـ كتاب المناسك ٢/١٠١٧.

كبدي سخفة جوع. قال رسول الله ﷺ: «إنها مباركة وإنها طعام طعم»[١].

* «النظر في زمزم عبادة، وهي تحط الخطايا، ومن فضائلها أن من حثا على رأسه ثلاث حثيات من ماء زمزم لم تصبه زلة»[٢].

وفي أخبار مكة روي عن الزنجي عن ابن خيثم قال: قدم علينا وهب بن منبه فاشتكى، فجئنا نعوده، فإذا عنده من ماء زمزم، فقلنا لو استعذبت فإن هذا الماء فيه غلظ، قال: ما أريد أن أشرب غيره حتى أبرأ، والذي نفس وهب بيده إنها لفي كتاب الله زمزم، لا تزف ولا تذم، وإنها لفي كتاب الله برة شراب الأبرار، وإنها لفي كتاب الله مضنونة، وإنها لفي كتاب الله طعام طعم وشفاء سقم، لا يعمد إليها أحد فيشرب منها حتى يتضلع إلا نزعت منه داء وأحدثت له شفاء.

ومما روي عن العباس أنه قال: صلوا في مصلى الأخيار، واشربوا من شراب الأبرار. قيل لابن عباس: وما مصلى الأخيار؟ قال: تحت الميزاب، قيل: وما شراب الأبرار؟ قال: ماء زمزم. وماؤها هو الماء الذي غسل به صدر النبي، لذا فهي أفضل من الكوثر عند شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني، إذ لم يكن ليغسل صدر رسول الله ﷺ إلا بأفضل المياه.

وذكر الحافظ العراقي أن حكمة غسل صدر النبي ﷺ بماء زمزم ليقوى به على رؤية ملكوت السموات والأرض، والجنة والنار، لأن من خواص ماء زمزم أنه يقوي القلب ويسكن الروع[٣].

يقول بدر الدين بن الصاحب المصري: وازنت ماء زمزم بماء مكة فوجدت زمزم أثقل من العين بنحو الربع، ثم اعتبرتها بميزان الطب فوجدتها تفضل مياه الأرض كلها.

ويقول البتنوني في الرحلة الحجازية: إن ماء زمزم في حقيقته ماء قلوي تكثر فيه الصودا، والكلور، والجير، وحامض الكبريتيك، وحمض الأوزوتيك، والبوتاسا، مما يجعله أشبه بالمياه المعدنية الصحية[٤].

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ١٧٥.

(٢) ذكر في كتاب الإرشاد الشافعي. . . وذكره الفاكهي وهو مرسل.

(٣) ذكر في شفاء الغرام للفاسي.

(٤) الرحلة الحجازية. لمحمد لبيب البتنوني ص: ٤٥.

وهذا مقصود حديثه ﷺ (شفاء سقم) والله أعلم.

ماء زمزم لما شرب له:

صح عن الشافعي ﷺ أنه شرب ماء زمزم للعلم فكان فيه غاية، وشربه للرمي فكان يصيب من كل عشرة تسعة.

وذكر عن أبي حنيفة ﷺ أنه شرب ماء زمزم للعلم والتفقه فكان أفقه الناس.

وقال ابن قيم الجوزية في زاد المعاد: ماء زمزم سيد المياه وأشرفها، وأجلها قدراً، وأحبها إلى النفوس، وأغلاها ثمناً وأنفسها عند الناس.

ولقد قمت بنفسي بهذه التجربة إذ كنت سأقوم بإلقاء محاضرة عامة في جمعية أم القرى بمكة المكرمة، وحدث أن انتابتني حالة مرضية احتبس على أثرها صوتي تماماً، ولم يتبق على موعد المحاضرة سوى سويعات قلائل، فشربت كوباً من ماء زمزم وتوجهت إلى الكعبة بعدما انعقد قلبي ولساني على الرجاء والأمل في الشفاء للوفاء بموعدي. وما أن غفوت قليلاً وإذا بصوتي يعود، بل ويصبح أكثر تأثيراً في الحضور.

إن الإيمان الصادق بالله وبكل ما أنبأنا به النبي الكريم عليه أفضل الصلوات وأجل التسليم يفرز تلقائياً أنماطاً شتى لا يدرك كنهها من حجب عن نفسه وروحه أنوار الإيمان.

آداب شرب ماء زمزم:

يقول الإمام الفاسي: يستحب لشاربه أن يستقبل القبلة ويذكر اسم الله تعالى. ويتنفس ثلاثاً، ويتضلع منه، ويحمد الله تعالى، ويدعو بما كان يدعو ابن عباس به إذا شرب ماء زمزم، إذ كان يقول: «اللّهم إني أسألك علماً نافعاً، ورزقاً واسعاً، وشفاء من كل داء»[1]. ويدعو بما يشاء غير ذلك. وليتناول قدحها بيده اليمنى.

هل يجوز التطهر بماء زمزم:

مما ذكره الأزرقي في أخبار مكة عن سفيان عن عاصم بن بهلة يحدث عن

(١) شفاء الغرام... للفاسي، ص: ٣٥.

زر بن حبيش قال: رأيت العباس بن عبد المطلب في المسجد الحرام وهو يطوف حول زمزم ويقول: لا أحلها الله لمغتسل، وهي لمتوضىء وشارب حل وبل.

أما حكم التطهر بماء زمزم فقد ذهب الفقهاء فيه إلى أقوال:

قال الماوردي... التطهر بماء زمزم صحيح مع توقي إزالة النجاسة به وبخاصة إن وجد غيره.

ويقول الطبري بحرمة إزالة النجاسة به وإن صح التطهر به.

ويرى المالكية، حرمة التطهر به، ولا يغسل بماء زمزم ميت، ولا تزال به نجاسة مع استحباب الوضوء به.

ويرى الشافعية استحباب الوضوء والغسل به.

أما الحنابلة فيحرمون إزالة النجاسة بماء زمزم في إحدى روايات أحمد[١].

ومما ذكره الفاكهي أن أهل مكة يغسلون موتاهم بماء زمزم إذا فرغوا من غسله وتنظيفه بالماء العادي، وذلك للتبرك. وذكر أن أسماء بنت أبي بكر الصديق غسلت ابنها عبد الله بن الزبير بماء زمزم[٢].

سر ماء زمزم في باطنها:

إن قدرة الله تعالى على تفجير ماء زمزم في هذه البلد القفر من الأرض واستمرار هذا النبع في العطاء لأكثر من أربعة آلاف عام. وازدياد مائة بزيادة أعداد المسلمين لمعجزة كبيرة لمن تدبر الأمر بعقل، وكان ذا قلب سليم.

وبالنظر إلى تركيز العناصر الكيميائية المختلفة عند تحليل ماء زمزم كما أرادها الله سبحانه وتعالى بهذه الكيفية يختلف مع ما وضعه البشر من مواصفات لمياه الشرب. فماء زمزم أقرب إلى المياه الصحية المعدنية منه إلى مياه الشرب. لهذا كان لماء زمزم من الخصائص ما لا يتوفر لغيره من الأنواع علاوة على ما في باطنها من الأسرار فهي:

- سيد المياه وأشرفها وأجلها قدراً وأحبها إلى النفوس.

---

(١) المغني لابن قدامة ج ١، ص: ٣٠.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك من حديث ابن عباس.

- شراب الأبرار.
- براءة من النفاق.
- تحط الخطايا.
- النظر إليها عبادة.
- غسل بها صدر النبي ﷺ ليقوى قلبه على رؤية ملكوت السمٰوات والأرض والجنة والنار.
- طعام طعم وشفاء سقم.
- لا يتذوقها ويعرف طعمها إلا مؤمن.
- تقوي القلب وتسكن الروع وتطفيء نار الحزن.
- يحصل الشبع لمن شربها إن قصد الشارب ذلك.
- جابرة لخواطر المؤمنين.
- ذات بر وإحسان لشاربها لما يناله ويحصل له من بركتها.
- تطفيء الظمأ وتمنع العطش.

إن سر ماء زمزم يكمن في باطنها وليس في ظاهرها. أرادها الله أن تجمع من الخصائص ما ليس لغيرها فجاءت بهذا التركيب الكيميائي فكانت راوية ونافعة، وميمونة، وبرة ومضنونة، وكافية، ومعذبة، وشفاء سقم، وطعام طعم، وهزمة جبريل برجله، وسقيا الله إسماعيل.